

القسم الخامس

بَيْنَ الْجَيِّدِ وَالْقَلِيلِ

الدين والأخلاق^(١)

بين الجديد والقديم

الظاهر أن الأستاذ الغمراوي رجل حسن النية صادق السريرة . وقلت الظاهر لأني لا أعرفه ؛ ولا أريد أن أتعرض لنقده ما يسميه المذهب الجديد ، ولا للنزاع الثائر بين أنصار الرافعي وبين أنصار العقاد . ولو كان الأستاذ قد اكتفى بالنقد الفني وقصره على ذلك النزاع الفني لسلم من بعض الهفوات التاريخية والاجتماعية ؛ فقد قال إن نزعة التجديد يرجع أولها إلى نحو ثلاثين سنة ، وقد ذكر فيما ذكر من التجديد أخذ الآراء الأوربية ، ولم يكتف بذكر ما أخذ منها مما هو في باب الآداب ، بل ذكر أيضاً ما اقتبس من النظم والمبادئ الاجتماعية . وهذا الوصف الشامل للتجديد لا ينطبق على نزعة بدأت منذ ثلاثين سنة ، وإنما ينطبق على النزعة بوجه عام منذ جاء نابليون إلى مصر ، ومنذ عهد محمد علي باشا وإسماعيل باشا ، ومنذ أدخلت المطابع وأرسلت البعث العلمية واقتبست القوانين المدنية ، ونظمت المحاكم الأهلية التي صارت تحكم بغير أحكام الشريعة الإسلامية ، وكثر نقل الكتب إلى العربية . والأستاذ الغمراوي يعيب على المجددين أنهم يريدون رفض بعض أحكام الشريعة ، ويذكر كيف أن بعض الكتاب يحذ من تعدد الزوجات . ويقول الأستاذ إن للدين وحدة تامة فلا يجوز أخذ بعضه وترك بعضه . ويا حبذا لو أن الأستاذ كان قد فصل هذه الناحية من التجديد في مقال مستقل عن النزاع على التجديد في معاني الشعر والنثر ، إذ ما صلة الذين قاموا بإنشاء المحاكم الأهلية وأحلوا أحكامها محل الشريعة الإسلامية ، وما صلة الذين يريدون منع تعدد الزوجات ومنع الطلاق ، بمعاني شكسبير والمتنبي وملتون وأبي العتاهية مثلاً ، ولعل أكثرهم كانوا لا يهمهم النزاع الفني الأدبي مطلقاً . نعم إن الدين والأخلاق لها مظاهر في الشعر والنثر فكان ينبغي للأستاذ الغمراوي وقد حكم للمذهب القديم أنه قوام الدين والأخلاق ، وحكم على المذهب الجديد

أنه بؤرة الإلحاد والمجون ، أن يثبت هذا الزعم فينفي عن شعراء المذهب القديم كل كفر وإلحاد ومجون ، وينفي عن شعراء المذهب الجديد كل تدين وإيمان بالفضائل مستشهداً بأقوالهم من شعر ونثر ، فإن هذه هي الطريقة الفنية للمفاضلة بين المذاهب من حيث الدين والأخلاق . وإن لم تخني الذاكرة فإن الأستاذ قد لخص المذهب الجديد في الأدب بأنه نزعة تغليب دين على دين . وإذا كان لهذا القول معنى فمعناه أن أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب الديانة المسيحية على الديانة الإسلامية . فإذا لم أكن مخطئاً في هذا التفسير كان واجباً على الأستاذ أن يقيم الدليل على أن أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب دين على دين ، وقد نسي الأستاذ أن كثيراً من مظاهر الحضارة الأوربية الحديثة لا علاقة له بالمسيحية التي هي دين أكثر الأوربيين ، أو لعل الأستاذ قد أراد أمراً آخر لم يفهمه . ولو رجع الأستاذ إلى العصر الذي كانت فيه النزعة الدينية المسيحية متغلبة في أوربا وهو عصر القرون الوسطى عصر التزهد والرهبة والتقشف لعلّم أن المحافظين من رجال الدين والكتاب كانوا يخشون على الدين والأخلاق من غزل العرب ومجون شعرائهم وقصصهم ومن حرية أفكارهم في المسائل الدينية والكونية ، وكانوا يرمون الأدب العربي بالإباحية في الأخلاق ، وكانوا يلومون الآباء الذين كانوا يرسلون أبنائهم إلى مدارس البلاد العربية كالأندلس وصقلية ؛ فلم يكن عداؤهم للكتب العربية الدينية فحسب ، بل كان عداؤهم للكتب الأدبية العربية والفكرية أشد . وموقف هؤلاء المحافظين من الأدب والفكر العربي كان شبيهاً بموقفهم من الأدب والفكر الاغريق القديم . وهذه الحقيقة ينبغي أن تنبه الأستاذ إلى أن الدولة العربية الإسلامية لم تلبث على الفطرة السليمة وعلى حالها من الأدب كما كانت في صدر الإسلام مثلاً بل دخلها الترف وتفشّت فيها لذائذ الحضارة وكثر المجنون في أقوال الشعراء والكتاب وبقيت أصناف المجنون والإلحاد مخطوطة إلى عهد أن دخلت المطابع البلاد العربية الإسلامية . ولا أحسب أن أهلها كانوا على فطرة يخشى عليها من تلك الكتب فإن حالة الأخلاق في عهد دخولها لم تكن أرق مما هو موصوف في تلك الكتب إلا في أوساط محدودة معروفة بالنزاهة والعفة والاستقامة وصدق القول والعمل ؛ وكان يضرب بها المثل ؛ وكانت كالشامة البيضاء تنعت نفسها لوضوحها في الجلدة السوداء . ولا تنس أن البدو

كانوا بطبيعتهم يكرهون الضوابط والروادع أية كانت ، فسرعان ما حثتهم الحضارة ولذائذها على التحلل من روادع الدين . وقد بدأ المجون يعود إلى استفحاله بعد عهد قريب من صدر الإسلام ، وبلغ أشده في الدولة العباسية ، وكان مصحوباً في كثير من الأحوال بالكفر والزندقة والإلحاد ، وكان كل منهما في بعض الأحيان مستقلاً عن الآخر ، فقد كان بعض الملحدين من أشد الناس زهداً ومحافظاً على الفضائل كما كان المعري مثلاً .

يقول الأستاذ إن المذهب الجديد في الأدب الذي يقول عنه الأستاذ إنه بدأ منذ ثلاثين سنة خطر على الأخلاق والدين ، فهل يستطيع الأستاذ أن يأتي بأبيات من شعر هذا المذهب الجديد في شناعتها كأبيات ابن الرومي النونية التي يقول فيها :

صوت يد العجان في العجين أو صوت رجلي عامل في طين

وهي أبيات قد اختارها له السيد توفيق البكري في كتاب (صهاريج اللؤلؤ) الذي ألفه كي يقرأه الناس رجالاً ونساء وفتياناً وفتيات ، والبكري كما يعلم الأستاذ الغمراوي كان شيخ السادة البكرية ورجلاً من رجال الدين والفضل ومن أدباء المذهب القديم ، ولكنه لم يتخرج من اطلاع سيدة أو فتاة فاضلة على ما في كتابه هذا من المجون الشنيع . ولأن يعطي الأديب من أدباء المذهب القديم أي قول قاله شعراء وأدباء المذهب الجديد لأخته أو لفتاة من أقربائه لتقرأه ؛ لأصون لها ولأخلاقتها من أن يعطيها كتاب صهاريج اللؤلؤ هذا إلا إذا طمس المجون قبل أن يقدم إليها الكتاب . وقد طبع الشيخ شريف جزعين من ديوان ابن الرومي في أحدهما أرجوزة مطلعها : (رُبُّ غُلامٍ وَجْهُهُ لَا يَفْضُحُهُ) وفيها يصف طرق اللواط في أوضاع وأشكال مختلفة . وقد عني الشيخ شريف بشرح لفظه ومعناه كما عني السيد توفيق البكري بشرح الأبيات النونية . والشيخ شريف كان مفتش اللغة العربية وأديباً من أدباء المذهب القديم ، ولكنه لم يتخرج كما لم يتخرج البكري من شرح وطبع هذا المجون وإيضاح معناه كي يقرأه ويفهمه الفتیان والفتيات . فأني أديب من أدباء المذهب القديم يرى أن يعطي أخته أو أخاه الصغير هذا الكتاب ، أو أن يطلعهما على قصيدة ابن الرومي أيضاً في (بوران) . أو

على ديوان أبي نواس أو على ما في كتاب الأغاني أو كتاب يتيمة الدهر للثعالبي من مجون لا تسمح أية دولة أوروبية بنشره ، بينما أدباء المذهب القديم يشرحونه ويطبعونونه ويستحلونه في مجالس أنسهم ويضحكون تفكهاً به ، حتى إذا جاء ذكر ما يسمى بالمذهب الجديد وأثر الأدب الأوربي فيه أخذتهم رعدة الغضب وادعوا أن المذهب القديم عماد الأخلاق والدين ، وأن المذهب الجديد بؤرة المجون والإباحية والإلحاد . إن المسألة بسيطة والأمر هين . نستطيع أن نطبع على الناحية اليمنى من صفحات المجلة ما نجده من مجون وإباحية شعراء المذهب القديم في العصور المختلفة حتى عصرنا هذا ، وعلى هؤلاء الأدباء أن يقدموا ما يستطيعون أن يعثروا به من أقوال أدباء المذهب الجديد لتطبع في الناحية اليسرى من المجلة . لاشك أن أدباء المذهب القديم يتهبون من مثل هذه المقابلة كل التهرب . وما يقال في كتب المذهب القديم الأدبية يقال أيضاً في كتب التاريخ . انظر بالله إلى الأبيات التي زعموا أن مسيلمة الكذاب بعث بها إلى سجاح المتنبئة والتي فيها (وإن شئت ... وإن شئت) كيف يستطيع أديب من أدباء المذهب القديم أن يطلع أخته أو بنته أو قرية له من الفتيات على هذا الشعر ؟

ثم انظر إلى ذكر الفحش وقصصه ونظم الهجاء فيه شعرا تجد أن ادباء ما يسمى بالمذهب القديم في كل عصر حتى عصرنا هذا كانوا أكثر حظاً منه . ولا أعني جميعهم ، ولكنهم حتى الأفاضل منهم قد وجدوا هذا الأسلوب من القول عادة صقلها الدهر وهون أمرها فأصبحوا لا يجدون خطراً على الأخلاق في نظم الهجاء فحشا ولا في التحدث عنه ، ولكن الخطر كل الخطر هو تأثير الأدب العربي بنواحي القول كما وردت في كتب الأدب الأوروبي .

وبعد فأي أدب أوروبي يعنون ؟ لقد تقلبت على الدول الأوروبية عصور اتخذ الأدب في كل منها نزعة خاصة ، ولكنهم إذا تكلموا عن الأدب الأوروبي خيل للقارئ أنهم يعدون جميع الأدب الأوروبي في عصوره المختلفة على طراز واحد وأنه مأوى المجون والإباحية والزندقة . إن عصور الأدب الأوروبي تختلف اختلافاً يجعل بعضها أقرب إلى بعض الأدب العربي منها إلى عصور أخرى من عصور الأدب الأوروبي ، فالأدب الاغريقي في سهولة معانيه وخيالاته أقرب إلى الأدب

الجاهلي العربي منه إلى الأدب الرمزي الأوروبي الحديث . والأدب الأوروبي الحديث في حرية الفكر أقرب إلى الأدب العباسي العربي منه إلى الأدب الأوروبي في القرون الوسطى . فإذا كان بعض الأدب الأوروبي الحديث قد دعا بعض أدباء المذهب الجديد إلى إيهام الإيجاز والصور المتدخلة بعضها في بعض وإلى غموض الرمزية فقد أُلّف بعض أدباء المذهب القديم على هذه الطريقة في إيهام الإيجاز من غير أن يطلعوا على الأدب الأوروبي . انظر مثلاً إلى إيجاز الرافعي في كتاب (حديث القمر) والكتب الأخرى التي كتبها ، وكأنه لم يكتبها إلا لكي يثبت أنه يستطيع أن يزيد على معاني وصور أدباء أوروبا والمذهب الجديد وأنه أغني منهم بمعانيه كما أنه أغني منهم بأساليبه اللفظية الفصيحة العربية ؛ ولكن فصاحة لغته العربية لم تخف الحقيقة الفنية ، وهي أن الرافعي صاحب (حديث القمر) و(السحاب الأحمر) أقرب إلى أدباء الرمزية الأوروبيين منه إلى الرافعي صاحب كتاب (إعجاز القرآن) . وإن بين أدباء المذهب الجديد من هم أقرب إلى الرافعي صاحب (إعجاز القرآن) وأقرب إلى أدباء العربية الأقدمين من الرافعي صاحب (حديث القمر) وأعني القرب في أسلوب التخيل وأسلوب عرض الصور الفكرية وكل صورة مستقلة غير متدخلة في أختها . فإذا أراد إذاً ناقد أن ينتقد المذهب الجديد أو الأدب الأوروبي كانت الطريقة المثلى أن ينتقد ما يعيبه فيه على طريقة النقاد الفنيين فبين الغث من السمين ويوضح أسباب حكمه على كل قول وكل أديب . أما أن يقول إن الأدب الأوروبي كأدب المذهب الجديد فاسد المعنى والخيال ينبو عنه الذوق العربي وتمجه الفصاحة العربية ، وإنه مباءة المجون والإباحية والزندقة ، فقول من لا يريد أن ينقد ولا أن تُقدّر قيمة ما يقول قدراً صحيحاً ، ولا أعني الأستاذ الغمراوي فإن هذه أحكام شائعة . نعم إن بعض الأدب الأوروبي ولاسيما الحديث منه يحث أدباء العربية على بعض ما يخالف العرف والتقاليد الإسلامية ، ولكن أليس في أقوال شعراء العرب وأدبائهم في كل عصر أشياء كثيرة تخالف العرف والتقاليد والآداب والأخلاق الإسلامية كما أوضحنا بالشواهد ؟ ونعترف أن في بعض الأدب الأوروبي الحديث ما يحث على الإلحاد ، ولكن أليس في أقوال زنادقة الدولة العباسية وفي لزوميات رجل فاضل كالمعري ما لا تسمح الحكومة بنشره لو أن أحد شعراء المذهب الجديد كان هو قائله ؟

ولكن أقوال أدباء الدولة العباسية والمعري أقوال صقلها الدهر واعتادها الناس فلا بأس من أن يتفكه بها أدباء المذهب القديم في مجالسهم ولا بأس من نشرها وإيداعها مكتبات المدارس .

وكما أن بعض الأدب الأوروبي أقرب إلى بعض الأدب العربي منه إلى عصور أخرى للأدب الأوروبي ، فكذلك بعض أدباء المذهب الجديد أقرب إلى أدباء المذهب القديم منهم إلى أدباء آخرين من أدباء المذهب الجديد ، فأدباء المذهب الجديد اليوم أكثر حرية في القول وأكثر نصيباً من الرمزية من أدباء المذهب الجديد الذين ظهوروا منذ ثلاثين سنة .

* * *

لو أن الأستاذ الغمراوي قصر حديث الدين والأخلاق على الرافعي لكانت حجته أقوى ، ولكنه وقع في خطأ منطقي إذ حسب أن جميع أدباء المذهب القديم قد راعوا حرمة العرف والتقاليد وآداب الدين وأخلاقه كما راعاها الرافعي . فكأن حجته مقسمة حسب التقسيم الذي يُستشهد به في الخطأ المنطقي : هي أن الرافعي راعى حرمة أخلاق الدين ، والرافعي من أدباء المذهب القديم ، فنستنتج من ذلك أن المذهب القديم يراعى حرمة أخلاق الدين . وهذا الاستنتاج كاستنتاج من يقول : الفيل له خرطوم والفيل حيوان ، فكل حيوان إذا له خرطوم . وقد ظهر هذا البرهان المنطقي في أكثر من مكان في مقالات الأستاذ الغمراوي ولاسيما في المقال الأخير . انظر إلى قوله (فالمسألة في الأدب إذا ليست مسألة لفظ ومعنى ولكنها في صميمها مسألة روح . فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً بحثاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل ، ولا يفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف ما لقي في ذلك من لذة وألم أو غيرهما من ألوان الشعور ؛ وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة ... إن أدب الفريق الأول هو ما يسمونه الأدب الجديد ... وأدب الفريق الثاني هو ما يسمونه بالأدب القديم) .

ومن الغريب أن عدد الرسالة الذي كتب فيه الأستاذ الغمراوي هذه الجملة فيه مقال للأستاذ خلاف يشير إلى كتاب يتيمة الدهر للثعالبي وإلى غيرها من كتب الأدب القديم ، ونستشهد منه بالجملة الآتية : (ومنذ أن قال امرؤ القيس أقواله الفاحشة في المرأة ، ونظم الفرزدق وجريير الشتائم والسباب ، وقال أبو نواس وبشار وأضرابهما في معاني الشذوذ والضعف الخلقي ، وامتاز العصر العباسي الثاني بالتفنن في تسجيل الصور الدنيقة من حياة الإنسان كما يتمثل في كتاب يتيمة الدهر (قاموس الأدب الداعر الوقح) ؛ منذ ذلك كله تحول ذوو الطبايع الجادة إلى وجهات أخرى في الحياة غير وجهة الأدب والاشتغال بمحصله) .

فالأستاذ خلاف يثبت في مقاله أن الأدب الداعر بدأه أمير شعراء الجاهلية في مثل قوله (إذا ما بكى من خلفها ... الخ) واستمر في عصور الإسلام إلى أن استفحل كل الاستفحال في عصر الأدب العباسي الثاني . فهل يعد الأستاذ الغمراوي أدباء هذه العصور الذين يعينهم الأستاذ خلاف من أدباء الأدب الجديد أم من أدباء الأدب القديم ؟ وهل قول الأستاذ الغمراوي (فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً الخ الخ) ينطبق أولاً ينطبق على أدباء الأدب القديم الذين ذكرهم الأستاذ خلاف ؟ وهل ينكر الأستاذ الغمراوي أنه قلما يخلو كتاب من كتب الأدب القديمة من أشياء لا يليق بالفتيات والفتيان ولا بأي إنسان أن يقرأها ، وأن الأستاذ خلاف عند ما ضرب الأمثلة لم يقصد أن يذكر كل ما وجد من هذا القبيل ؟ إن في كتاب يتيمة الدهر أشياء لو قرئت على الأستاذ الغمراوي لوضع إصبعه في أذنه وفر وهو يقول : مرحباً بالجديد . وما رأى الأستاذ الغمراوي في شرح السيد توفيق البكري شيخ السادة البكرية ، ورجل الفضل والدين لأبيات ابن الرومي التي ذكر فيها صوت يد العجان في العجين (راجع صهاريج اللؤلؤ) ؟ فهل السيد توفيق البكري من أدباء المذهب الجديد ؟ وما رأيه في الشيخ شريف رجل الفضل والدين ومفتش اللغة العربية في وزارة المعارف وقد شرح أرجوزة ابن الرومي التي أولها (رب غلام وجهه لا يفضحه) . وليس من موبقة إلا وفي كتب الأدب القديم وصفها والافتخار بها على شكل لم يبلغه الشبان المولعون بما يسمونه (الأدب المكشوف) . ومن الغريب أن الذين ينهون الحكومة إلى سقطات هؤلاء الشبان لا ينبهونها إلى ما في كتب الأدب القديم من مخازٍ لا تسمح أية دولة بنشرها . راجع في الأغاني أمثال قصة أصبع ابن أبي الأصبع ومطيع بن إياس ، على ما أذكر ، أوصل الأستاذ خلاف عما وجد في كتاب يتيمة الدهر حتى سماه قاموس الأدب الداعر ، بل خذ أي كتاب أو ديوان ، خذ مثلاً ديوان أبي تمام وراجع القصيدة التي يخاطب فيها الحسن ابن سهل في قوله : (إن أنت لم تترك السير الحثيث الخ) ولاسيما البيت الذي أوله (سبحان) في الطبعة غير المنقحة ، أو خذ ديوان البحتري وانظر كيف أفحش في المجون في حضرة أمير المؤمنين المتوكل في القصيدة التي يمدحه بها وأولها : (سقاني القهوة السلسل) وانظر إلى البيت الذي أوله (وقطع) فهل هؤلاء

من شعراء المذهب الجديد ؟ وهل أمير المؤمنين المتوكل من أدباء المذهب الجديد ؟ أو خذ ديوان أمير المؤمنين عبد الله ابن المعتز ففيه أيضا مخازير يعجب لها الأستاذ الغمراوي . أو خذ ديوان الرجل التقى النقي العلوي صفى الدين الحلبي وانظر إلى مجونه وغزله المؤث والمذكر ، انظر مثلا إلى سبب تضمينه الأبيات الآتية في قصيدة له والأبيات أولها (أيا جيلي نعمان بالله خليا الخ) .

إن أدباء المذهب القديم وأدباء المذهب الجديد في أيام شبابهم قد قرأوا كل هذه الكتب وقرأوا ما فيها مما لو رآه الأستاذ الغمراوي لطمسه . وقد تأثر كثير منهم بها إلى حد جعلهم لا ينكرون وجودها وجعلها في نظرهم أشياء طبيعية مألوفة . وأدباء المذهب الجديد قد قرأوا الكتب العربية قبل قراءتهم كتب الأدب الأوروبي التي يخشى الأستاذ الغمراوي قدوتها . فإذا كانت كتب الأدب الأوروبي قد أثرت فيهم فإن كتب الأدباء والشعراء التي يستنكرها الأستاذ خلاف لا بد أن تكون أبلغ أثرا في نفوس الفريقين ؛ وهي أيضا بليغة الأثر في نفوس فتيات وفتيان المدارس لأن هذه الكتب يستعيرها التلاميذ والتلميذات بمدارس البنين والبنات ، فهي بمكتبات المدارس ويبحث التلاميذ والتلميذات على قراءتها . لو كان الأستاذ الغمراوي يعرف ما يكتبه الطلبة من الحواشي أحيانا على هامش هذه الكتب المستعارة لعرف مقدار أثر كتب الأدب القديم في نفوس النشء . إنني أتوسم في الأستاذ الغمراوي الإنصاف ، ومن أجل ذلك أعتقد أنه لو بحث هذه المسألة وفحص أثر هذه المؤلفات وأمثالها بعد أن يدرس مجونها ويهتدى إليه بهداية أهل العلم بأما كنهه لاعترف أنه إذا كان لأدب ما أثر في دفع الشبان إلى المجون والإباحية في الأخلاق فهو أثر الأدب القديم ، وأن هذا الأدب القديم غير مقصور الأثر على التلاميذ والتلميذات ، بل إن أثره يشمل أدباء المذهب القديم العصرين وأدباء المذهب الجديد على السواء . ولا يعجب الأستاذ الغمراوي إذا قبل إن الأدب الأوروبي الحديث إنما يؤدي دينا عليه للعالم العربي ، فإن الأدب والشعر والفكر العربي كما كان في الحضارة العربية ولاسيما العباسية والدويلات التي أتت بعدها كان كثير الحرية إلى حد الإباحية في الخلق أحيانا ؛ وقد كان هو والأدب الاغريقي القديم من العوامل التي قضت على أدب التعفف والتعشف المسيحي في القرون الوسطى .

وما يقال في الأدب القديم عن الآداب والأخلاق يقال أيضا عن العقيدة نفسها فلو رجع الأستاذ الغمراوي إلى كتب الملل والنحل العربية لوجد أن بعضها لم يترك إلحادا إلا وصفه ولا كفرا إلا أطال القول في معانيه .

وأقوال ملاحدة الدولة العباسية وغيرها من الدول لا تزال أمام القراء من شعر ونثر ، وما ترك الأول للآخر شيئا .

إذا يحسن بالأستاذ الغمراوي أن يقصر قوله على الرافعي ، وأن يمجده ما شاء ، وأن يقدس مراعاته حرمة الآداب والأخلاق الإسلامية ، أما أن يقع في خطأ الاستنتاج فهو أعظم من ذلك منزلة .

وإذا كان الأستاذ الغمراوي يريد أن يقضي على سبب من أهم أسباب فساد الأخلاق فعليه أن يبحث وزارة المعارف وإدارة المطبوعات على تشكيل لجنة لفحص الكتب العربية وطمس ما هو مفسد للأخلاق في الموجود من نسخها وتحريم طبعه في الطباعات الجديدة فإن ائتمان أمثال هذه الكتب وهؤلاء الأدباء على أخلاق النشء (ومحاربة الأدب الأوروبي) يكون كمن يأتمن لصا وطنيا على بيته وأمواله وأثاثه لأنه وطني ؛ وقد يكون هذا اللص الوطني أشد خطرا لأنه يؤتمن ويمهد له السبيل ويعطى له مفتاح المنزل . أو كمن يأتمن فاجرا داعرا على أبنائه لأنه كان صديق صباه وأليف أيام شبابه .

* * *

ليسمح الأستاذ الغمراوي أن تؤكد له أن حرية القول في الأدب الأوربي ولاسيما الحديث منه ما كانت لتؤثر في أدباء اللغة العربية بمقدار ما أثرت ، وما كانت تحتذي بمقدار ما احتذيت ، لولا أن أدباء اللغة العربية تأثروا قبل اطلاعهم على الأدب الأوربي بحرية القول في الأدب العربي ، ولاسيما العباسي وما يليه ؛ فالشباب الذي يُحَثُّ على قراءة دواوين العرب وكتب الأدب ويستوعبها لابد أن يحتذبها في صراحتها . ألا ترى أن السيد توفيق البكري والشيخ شريف رأيا أن الأبيات التي أشرنا إليها في المقالات الماضية أشياء غير مستنكر شرحها وطبعها ؟ فإذا كان شيوخ الدين والترية يتأثرون هذا الأدب اللغوي المكشوف تأثراً لا يشعرون به ، ويجعله مألوفاً ألفه تمتع الاستنكار ، فكيف لا يتأثره الشبان الذين لم تكن لهم سابقة الاشتغال بأمور الدين أو الترية ، وربما اطلعوا عليه وهم في سن المراهقة كما يفعل الفتيان والفتيات الذين يستعبرون كتب هذا الأدب من مكاتب مدارسهم ، والقارئ المسن يستطيع أن يتذكر فورة شبابه أيام المراهقة ، ويستطيع أن يحكم كيف تؤثر قصائد ابن الرومي التي شرحها البكري والشيخ شريف في شهوة المراهق ، وكيف تؤثر الدواوين والكتب القديمة المشحونة بأمثال تلك القصائد . وانظر كيف يتغير نظر الشباب المراهق إلى اللائق وغير اللائق مما ينبغي أولاً ينبغي الاطلاع عليه عندما يرى أن شيوخ الدين والترية يعنون بشرح هذا الفحش ويطبعونه له ، وعندما يرى أن المدارس تحته على قراءة الكتب التي طبع فيها وتؤنبه إذا لم يقرأها . ومعاذ الله أن نقول إن البكري أو الشيخ شريف أرادا بالشبان والفتيات شراً ، إنهما فعلا ما فعلا على قاعدة أن لاهياء في اللغة وأدب اللغة ، وأن الفن يراذ للفن لا لما به من الفحش ، كمن يستجيد مثلاً صنعة أبي نواس البيانية في مجونه لا بسبب حبه للمجون بل لحبه للبيان والبديع . ولكن هل نلوم الشبان إذا تأثروا بهذا الأدب اللغوي المخالف للعرف

والتقاليد والآداب والأخلاق الإسلامية وسن المراهقة له حوافر ودوافع ؟

وإذا قرأ الشاب بعد ذلك بعض مجون شاعر أوربي كمجون هنري هيني الشاعر الألماني (وهو كلا مجون إذا قيس بما في كتب العرب) ألا يرى أن العالم كله الشرقي والغربي يجعل هذا الأدب اللغوي ويعني بشرحه وطبعه ، وأنه إذا لاضير عليه من احتدائه ؟ وإذا قرأ بعد ذلك قصة عشيق الليدي شاترلي وجد مجوناً كمجون الفحش العربي ولو أنه كتب بطريقة تحليلية علمية أرق بعض الرقي من فحش ماجنى الدولة العباسية . ألا يرى القارئ أن تأثر الشاب بالأدب العربي مثل شعر بشار بن برد والحسن بن هاني وغيرهما يسهل قبوله للأدب الأوربي الذي يشكو منه الأستاذ الغمراوي ؟

لكن الأستاذ تجاهل تاريخ الأدب العربي القديم والحديث لكني يستطيع أن يرهن على أن الأدب القديم غير مخالف للفضائل والآداب والأخلاق ، وأن الأدب الجديد أو أدب المذهب الجديد مخالف للشهوات ومخالف للفضائل . والحقيقة أن هذا التقسيم غير حقيقي وغير منطقي ، فأدب المذهب القديم به ما يراعى الفضائل والأخلاق وبه مالا يراعها ، وأدب المذهب الجديد أيضاً به ما يراعى الفضائل وبه مالا يراعها سواء بسواء . فكان الأحجى بالأستاذ أن يقسم الأدب لا إلى مذهب قديم ومذهب جديد ، بل إلى أدب فاضل وأدب إباحي في الأخلاق ، ثم ينتقد الأقوال لا الأدباء جملة ، لأن كل أديب أو شاعر قد يكون له ما يضعه الأستاذ في القسم الأول ، وقد يكون له ما يضعه في القسم الثاني . أو لو أراد قصر مقاله على الرافعي لاستطاع أن يقول إن كل أدبه من أدب الفضائل من غير أن يتجاهل تاريخ أدب اللغة كله ، ومن غير أن يحكم حكمين كل منهما جائر لما فيهما من التعميم الذي يخالف طبيعة العلماء أمثال الأستاذ ، فإن العلماء الباحثين ولاسيما علماء الكيمياء والطبيعة يتخرجون من إصدار أحكام عامة بسبب شواهد خاصة معدودة ، فلا يقولون إن أدب المذهب القديم هو أدب الفضائل ، وإن أدب المذهب الجديد هو أدب الرذائل على وجه التعميم .

لكن الأستاذ الغمراوي عالم ، فلا بد أن فطنته وبحته قد أوصلاه إلى حقيقة أراد أن يفسرها فبالغ في تفسيرها واشتط وأصدر هذه الأحكام العامة . ومن أجل

أن نتبع تفكير الأستاذ ينبغي أن ننظر إلى الفرق الحقيقي في أدب المذهب القديم وأدب المذهب الجديد من حيث الروح . إن الأدب القديم وصل في عهده الأخير إلى أدب احتذاء لا أدب اجتهاد ، ونعني بالاجتهاد الاصطلاح الفقهي لا المعنى اللغوي ، فإن نصيبه من الاجتهاد كبير إذا أريد المعنى اللغوي للاجتهاد . وهذا هو الفرق الحقيقي بين اجتهاد أدباء المذهب القديم واجتهاد أدباء المذهب الجديد ؛ فالمذهب الجديد يريد بحث النفس وعواطفها وشرائعها وسننها ، لا قصر البحث على شهواتها ، ولا رغبة في إطلاق هذه الشهوات من عقالها كما يقول الأستاذ . فبحث النفس يقتضي بحث جانب الإيمان منها كما يقتضي بحث جانب الشك ؛ ولكنه الشك الذي يبعثه الإيمان ، وهو الشك الذي يبحث عن أمل للإنسانية في هذه الحياة وبعد هذه الحياة ، والذي يحاول أن يداوي شرور الحياة ما استطاع الإنسان ذلك . وهذا الشك لا يستقيم لمن كان قلبه غير عامر بالإيمان ؛ والشاعر لا يكون شاعراً إلا بمثل هذا الإيمان المُلحِّ العنيف الذي يريد أن يزكي نفسه . وهذا أول أسباب سوء الظن بهذا المذهب . وثانيها أن الاجتهاد شبه الفقهي في تفسير الحياة وعوامل النفس قد يشط أحياناً . وقد أقفل باب الاجتهاد في الفقه ولكن باب الاجتهاد في الفقه النفسي والفكري لم يقفله المذهب الجديد . فخصائص المذهب الجديد الروحية هذه أي الرغبة في بحث جوانب النفس والحياة واستئناف اجتهاد الفقه الفكري والروحي هي خصائص قد يشط معها الأديب في بعض الأحيان ، ويكون شططه في عهد الصبا أكثر ، إذ تكون خبرته قليلة واندفاعه عظيماً . ثم إن بعض الأدباء قد تشط بهم هذه الخصائص دائماً شططاً بعيداً ؛ ومن أجل ذلك ليس من الحق أن نسلك جميع الأدباء في نظام واحد . ألا ترى أن الأدب الأوربي الحديث يشمل نزعات مختلفة كل الاختلاف منها ما يحدث صلة بينه وبين الأدب الأوربي في العصور السابقة ، ومنها ما ينأى به عنها ؟ فحكم الأستاذ الغمراوي على المذهب الجديد كمن يحكم حكماً عاماً واحداً على الأدب الأوربي الحديث على اختلاف نزعاته الذي يشبه اختلاف نزعات الأدب المصري الجديد من أجل أن أساس تلك النزعات واحد وهو بحث التجارب النفسية والفكرية ؛ فمن الأدباء من يبحثها على طريقة المعري ، ومنهم من يبحثها على طريقة شكسبير ، ومنهم من يبحثها على طريقة أدباء الرمزية ... إلخ . وكما أنه ليس من الحق أن يحكم الأستاذ حكماً عاماً على

أدباء المذهب القديم (وبينهم تفاوت في الروح) ، ولا من الحق أن يحكم حكماً عاماً على أدباء الأدب الجديد ، فليس من الحق أن يحكم حكماً عاماً على الشاعر أو الأديب الواحد ؛ فان الشاعر نفس وللنفس مظاهر مختلفة تقتضي تفصيل الحكم عليها ما دام لا يحكم على قول أو عمل واحد ، أو عليها في حالة أو زمن خاص . وليس من الحق أيضاً أن يُعقل الأستاذ أثر حرية القول في الأدب العربي الذي شرحناه في أول هذا المقال ، ولا من الحق ألا يرى أن حرية القول الناشئة من إطلاق الشاعر نفسه من القيود أثناء البحث شططا منه لم يأت بأشنع من الأمثلة التي ذكرناها للأستاذ من الأدب العربي ، بل لعلها أقل شناعة ؛ وهي على أي حال ليست من لوازم أي مذهب ، فمثلها في آداب العصور والأهم موجود ، وواجب الناقد أن يميز بينها وبين الصالح من قول الأديب أو الشاعر . ومما يدل الأستاذ على أن الأدب المصري الحديث خليط من القديم والجديد أن أحدهم يلقي زميله فيسأله هل أنت من أنصار المذهب القديم أم من أنصار المذهب الجديد ؟ كأن الحكم ليس لما يؤلفه الأديب من شعر أو نثر ، وكأنما يصح أن يكتب الأديب على طريقة المذهب الجديد ويختار أن يعد من أنصار القديم أو العكس . لكن هذا السؤال له معنى وقيمة ؛ إذ هو دليل على الحيرة من أجل أن أدب كل أديب خليط من مؤثرات الأدب العربي في عصوره المختلفة والأدب الأوربي أيضاً ؛ وإنما يختلف هذا الخليط عند كل واحد باختلاف مقادير عناصره . ومن الأسباب التي قد تدعو إلى سوء الظن بالأديب الجديد علاوة على ما ذكرنا ، ما يقرأ منه أحيانا من سخر وتشاؤم ، وقد يكون فيهما شطط ؛ وقد يحسبان من قلة الإيمان ، ولكنهما قد يكونان من الإيمان الحائر في وجوه الكون والحياة الذي لم يوهب نعمة الاستقرار ، وهي حالة تعرض لكثير من النفوس فلا يستطيع تجنب وصفها كل التجنب . وإذا نظر الأستاذ إلى ما ينشر في الصحف والمجلات والكتب في جميع الأقطار العربية من شعر ونثر وجد في تباين أبواب القول الذي لم يترك جانباً من النفس والحياة لم يحاول نفته ، ما يدل الأستاذ على أن هذا التنوع هو خصيصة الأدب الحديث ، وهو يشمل ما يشكو منه الأستاذ ، ولكنه أعم مما يشكو منه ، وقد صار هذا التنوع في الأدب وشموله بحث نزعات النفس وجوانب الحياة قاعدة عامة في آداب العالم كله ؛ ولا يمكن إعادة عقارب ساعة الزمن إلى ما كانت عليه في الماضي للقضاء على ما يشكو منه الأستاذ . فإذا أراد أن يظفر بتطهير الأدب كان الأحجي به ألا يتعصب

لقديم ولا لجديد ، وأن يأخذ من الجديد على تنوع أغراضه وأبوابه ما لا بد منه لإشباع مطالب النفس والفكر في عصر تعددت فيه مطالبهما وأصبحت كمد النهر في فيضانه ، وألا ينتقد هذا الأدب الجديد بالجملة كي يصيب سامعاً مجيئاً إذا هو قصر نقده على ما في هذا الأدب الجديد من شطط ، وأن يتخذ في نقده هذا الشطط طريقة التحليل النفسي والإلمام بأسبابه ونتائجه وشواهد على طريقة الطبيب مداوي بالتحليل النفسي ، وألا يقصر نقده على شطط الجديد من غير نظر إلى شطط القديم ، وقد أوضحنا أن حرية القول في الأدب الجديد تمت بسبب إلى الأدب القديم سواء أكان ذلك في الغزل والأمور النفسية أم في الأمور الفكرية ، وليظهر كتب الأدب القديم وعاداته المألوفة من مجون وشطط فكري كما بينا .

وإني لأربأ ببصرة الأستاذ وعقله أن يظن كما يظن بعض الناس أن إسقاط أديب أو أكثر من أديب من أدباء المذهب الجديد يقضي على هذا المذهب . ولو كان من المستطاع القضاء على كل ما قاله أدباء المذهب الجديد من شعر أو نثر - الجيد منهما وغير الجيد ، والمقبول وغير المقبول - فإن هذا القضاء على ما قاله المعاصرون لا يقضي على الأدب الجديد ، لأن أسبابه أعم وأكبر من أن تحسب من ابتكار أديب أو أكثر من أديب . وربما كان من الحكمة أيضاً ألا ينسى الأستاذ وهو الخبير بالنفس الإنسانية أن بعض العداء الذي لاقاه المذهب الجديد من غير المبرزين الفطاحل كان بسبب الإجادة المحمودة الماثورة المحسودة في بعض هذا الأدب الجديد ، وإن كان عداء المبرزين الأفاضل أمثال الرافعي بسبب اختلاف حقيقي في الرأي والروح .

سهو

ذكرت سهواً أن أبيات ابن الرومي في (كتاب صهاريج اللؤلؤ) والحقيقة أنها في كتاب (فحول البلاغة) للمؤلف نفسه أي البكري ولا يوجد شرح ولكنه اختارها هي وقصيدة (بوران) ولم يكف عن اختيار الجون تحرجاً . وكذلك لا يوجد شرح في الأرجوزة الأخرى ولكن عدم التحرج ملحوظ أيضاً .

لو أن الأستاذ الغمراوي فحص عن أخلاق أمة من الأمم في نفوس آحادها لوجد اتفاقاً أو شبه اتفاق في خصائص تلك الأمة . ولا نعني بالخصائص أنها تفردت بأخلاق لا يوجد مثلها في أمة أخرى ، فإن الأخلاق شائعة في النفوس البشرية ، وإنما نعني أن تلك الأخلاق أكثر شيوعاً فيها بالرغم من تفاوت نفوس آحادها في خصال الحمد والذم والخير والشر ، ويستوي في تلك الخصائص من يقرأ فلسفة هربرت سبنسر ومن يقرأ كتب الغزالي ، ومن يقرأ شعر شكسبير ومن يقرأ شعر المتنبي ، فإن تلك الخصائص المتوارثة لها عدوى تذيبها في البيئة الواحدة وهي راسخة لا تغيرها أيام ولا سنوات قليلة ، وأسبابها حوادث وشرائع اجتماعية ظلت تؤثر في الأمة زمناً طويلاً .

فإذا نظر إلى أخلاق البيئة المصرية وفحص عنها على ضوء هذه الحقيقة وجد أن الخصائص الخلقية شائعة يشترك فيها العظيم والحقير ، ويشترك فيها الشيخ والأفندي كما يشترك فيها الفلاح وساكن المدينة بالرغم من التفاوت الظاهري في العادات وفي مقادير رسوخ هذه الخصائص أو المقادير التي تظهر بها وإن كان التشابه في مقاديرها الكامنة أعظم . وأوجه الاختلاف الظاهري تظل ملازمة للمرء ملازمة كبيرة وإن حاول أن يحول بعض خصائص نفسه إلى جانب المقادير المقهورة التي يخفيها في النفس إذا انتقل من طائفة إلى طائفة أخرى من طوائف الأمة ؛ فالفلاح إذا ألبسته طربوشاً أو قبعة لا يخلع خصائصه ولا يستطيع خلعها ويبقى فلاحاً بخصائصه ، ولكنه ربما حاول أن يخفي بعض تلك الخصائص في نفسه .

والمذهب الجديد في الأدب هو إلى حد كبير كالطربوش أو القبعة التي يلبسها الفلاح ؛ والمذهب الجديد كما أوضحنا قد تأثر مباشرة بما أخذه عن المذهب القديم وبما أخذه بطريق غير مباشر بعد أن تأثر الأدب الأوربي الذي هو وليد

نزعة إحياء العلوم في أوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بالأدب والفكر العربي .

ولابد أن الأستاذ الغمراوي قد عاشر طوائف مختلفة من طوائف الأمة وإن لم يكن قد درس حالة الأدباء الخلقية دراسة العشير الذي لا يُخاتل لا دراسة القائل بما يسمع . ولابد أن الأستاذ قد أيقن من اتفاق طوائف الأمة في الخصائص الخلقية . ولو أنه أتبع له أن يدرس أخلاق الأدباء لوجد أن الخصائص الخلقية متشابهة فيهم بالرغم من المذهب القديم والمذهب الجديد ، وأن التفاوت الفردي بين آحاد كل طائفة ربما كان أهم من تفاوت أدباء كل مذهب . فالاستقامة والصدق والعفة والنزاهة والسماحة في الخلق والوفاء الخ ليست ملكا لمذهب في النثر أو الشعر . وكذلك اللؤم والكذب والغدر والانصراف إلى الملذات والحقد ليست ملكا لمذهب في الشعر أو النثر . ولو أن الأستاذ بحث هذه الخصال لوجد أن خصال الحمد والذم لابد أن توجد في المذهبين ، فإن هذه خصال وميول متوارثة ترزدها حوادث الحياة وحالاتها قوة أو ضعفا . أما غير هذا الرأي فلا يأخذ به إلا من يسهل أن يخدعه التعصب لجماعته ، فإن المذهب القديم أو الجديد ليس دينا له أخلاق معينة لا يتعداها ، وإلا فإن الأديب الذي يكتب على طريقة الأدب الجديد متأثرا بالأدب الأوربي ويطرى الاستقامة ، يعد في نظر الأستاذ كافرا بالأدب الحديث ؛ وإن الأديب الذي يطري أبياتا فيها مجون من صنع شاعر من شعراء المذهب القديم يعد كافرا بالمذهب القديم . وعلى هذه القاعدة يكون أكثر شعراء العرب وأدبائهم من عهد امرئ القيس (كما ذكر الأستاذ خلاف) إلى عهدنا هذا كافرين بالمذهب القديم ؛ وإذا لا يكون هناك مذهب قديم في عالم الوجود ، ويكون السيد توفيق البكري متفرنجا عند ما اختار لابن الرومي أرجوزته النونية في وصف الزنا ، ويكون الشيخ شريف مفتش اللغة العربية ورجل التربية متفرنجا عندما شرح أرجوزة اللواط لفظاً ومعنى ، أو يكون الأديب الواحد تارة من أنصار المذهب القديم إذا تمثل بأبيات من زهد أبي نواس أو أبي العتاهية ، وتارة من أنصار المذهب الجديد إذا تمثل بمجونهما . ويكون إذا حافظ إبراهيم من شعراء المذهب الجديد إذا قص قصص المجون في مجالسه أو روى أشعار المجون ، ويكون

حافظ إبراهيم نفسه من شعراء المذهب القديم إذا تناول مسبحة وروي أشعار الزهد والتقوى ، ويكون كل أديب أو شاعر من شعراء أو أدباء المذهب القديم كما يكون حافظ في حالتيه . ويكون الأديب منهم من أنصار المذهب الجديد إذا تمثل بأبيات من لزوميات المعري لا يرضي عنها الأستاذ الغمراوي ، ومن أنصار المذهب القديم إذا تمثل بأبيات أخرى من اللزوميات يرضى عنها الأستاذ . وفي اللزوميات ما يُرضي وما لا يُرضي الأستاذ ؛ ويستطيع الأستاذ أن يتخلص من هذه الورطة فيقرر أن الشاعر الذي يجمل اللغات الأوربية ولا يقرأ الأدب الأوربي المنقول إلى العربية هو من أدباء الفضيلة (والفضيلة كما قرر الأستاذ هي المذهب القديم) حتى ولو قال النثر والشعر في المحون والزيف متأثراً بمجون وزيف شعراء (الفضيلة) القدماء ممن كتبوا باللغة العربية ، وأن الأديب الذي يعرف اللغات الأوربية والذي درس آداب اللغات الأوربية والذي يعد نفسه من أدباء المذهب الجديد هو في الحقيقة من أدباء (الرذيلة) حتى ولو أطرى الفضيلة كما أطارها شكسبير وفكتور هيجو . وإذاً يكون من الواجب المحتوم أن الشاب الذي لا هو من أدباء المذهب القديم ولا الجديد ، لأنه ينقل عبارات أجنبية نقلاً حرفياً كالضحكة الصفراء (وغيرها من العبارات المضحكة التي يدعي أدباء المذهب القديم أنها من خصائص المذهب الجديد) أقول إنه من الواجب المحتوم أن يعد هذا الشاب من أنصار المذهب القديم ما دام يطري الفضيلة حتى ولو أطارها كما أطارها فكتور هيجو إطرأً صحيحاً ولكن بأسلوب عربي سقيم ، وأخشى أن هذا المنطق الغريب قد يسوقنا إلى أن نعد الأسلوب السقيم إذاً من خصائص المذهب القديم ما دام صاحبه يطري الفضيلة ، وأن نعهده من خصائص المذهب الجديد إذا كان صاحبه يطري الرذيلة . على أننا لو فرضنا أن الأستاذ قد أصاب في جعله المذهب القديم مرادفاً للفضيلة وأنه عقيدة دينية ، فكلم من معتنق عقيدة يقول بلسانه ما لا يتفق وأخلاقه وأعماله ! فكيف به وهو ليس بعقيدة دينية حتى ولو كان كل أدبائه من عهد حسان بن ثابت إلى اليوم منزهين عن الفحش في قولهم وعملهم فكيف به وليسوا كلهم منزهين عن الفحش في قولهم وعملهم بل كان منهم من بلغ من الفحش في القول والعمل غاية ليست بعدها غاية . ألا يرى الأستاذ أن جعله المذهب القديم مرادفاً للفضيلة مع هذه الحقائق يؤدي إلى أن ينافق من ينافق فيدعي

أنه حامي حمى الدين والفضيلة كي ينال ما يرادف هذه الألقاب حسب اصطلاح الأستاذ فيلقب بزعيم النثر وسلطان الشعر ؟ إن بعض أدباء المذهب القديم قد نشروا هذا الاصطلاح بكل ما أوتوا من بيان ، كما كان كل فريق من الدول في الحرب العظمى يدعى أنه حزب الله المصطفى وأن الفريق الآخر حزب إبليس الخاسر عليه لعنة الله . فكان الانجليز يقولون إنهم يدافعون عن الفضيلة والحضارة والعدل والخير والحق ، وإن خصومهم خصوم هذه الصفات العليا . وكان الألمان ينشرون مثل هذه الدعوة لأنفسهم حذوك النعل بالنعل . وكان كل فريق يضحك في سره من سذاجة من يصدق أقواله . وكذلك يفعل بعض الأدباء هنا وهم يخفون ما يعرفون من أن الشطط في القول لم يكون مقصوراً على مذهب في الفنون والآداب ، وأن مناصرة الفضائل ليست مقصورة على مذهب ، وأن جعل الفضيلة مرادفة للمذهب القديم والرذيلة للمذهب الجديد شطط وظلم لا يتفق وروح العدل الذي تأمر به الشرائع السماوية ، وأنه حتى على فرض أنهم يفعلون ذلك مناصرة للشرائع السماوية لا كسباً للرزق والشهرة والمكانة ، فإن مناصرة الشرائع السماوية بما ينقض عدل الشرائع السماوية من تعميم هو غاية الظلم يجعل مناصرتهم للشرائع السماوية مهزلة لا يرضاها الله ، فإن مناصرة الشرائع السماوية لا تكون إلا بفضائلها ، فكيف بهم وهم يعلمون أن شطط القول أو الفعل لم يكن قديماً ولا حديثاً مما يلتصق بطائفة دون طائفة ، وأنه لم يخلق الله مذهباً من مذاهب الفنون من عهد آدام إلى اليوم يصح أن يعد مرادفاً للفضيلة في جميع مظاهره ؟

قال الأستاذ الغمراوي إن النزعة إلى التجديد بدأت منذ ثلاثين سنة . وقد أوضحنا أن التجديد بمعناه الأعم الذي شرحه الأستاذ بدأ منذ دخول نابليون مصر وذاع أيام محمد علي باشا وإسماعيل باشا ، فليس له مبدأ واحد . أما التجديد بالمعنى الأخص وهو التجديد في أبواب الشعر والنثر ومعانيهما فهو أيضاً مما لا يحد بمبدأ واحد كما يعرف من يدرس حياة الأمم ونمو النزعات والأفكار فيها ، ولكن الذي يقرأ مقالات الأستاذ وأقوال بعض الكتاب يحسب أن النزعة إلى التجديد هذه نزعة متضامنة الأفراد متحدة العناصر متفقة الأهواء والمشارب

والمبادئ بدأت بمؤامرة على الدين والأخلاق . والذي يدرس حياة الأمم ونمو الأفكار فيها يعرف أن هذا خيال في خيال . والذي يدرس النزعة إلى التجديد يرى أنها ليست ذات مبادئ واحدة وأنها نزعات مختلفة ، فإن من أدهاء التجديد من يرى في المذهب الرمزي كل علو فني ، ومنهم من لا يستلذه ولا يقنع عاطفته إلى الفن لإبهامه وسقوط الصلة بين الرموز والحقائق التي تشير إليها الرموز ، ولتكاثر الصور فيه بعضها فوق بعض . وقد أوضحنا أن الرافي - وهو في رأى أصدقائه زعيم المذهب القديم - كان أقرب إلى المذهب الرمزي في بعض كتبه مثل حديث القمر . وليس من البعيد أن يأتي يوم يعد فيه الرافي من زعماء المجددين في الأدب الرمزي أو زعيمه الأكبر . ولا أحسب أن الأستاذ الغمراوي كان منذ ثلاثين سنة متبعاً تلك النزعات تتبع المعالج للبحث الاجتماعي ، فهو إذاً يقول بالسماع وقد أوضحنا في مقال سابق أن الأستاذ يصنع خيراً لو أنه اجتنب من المذهب الجديد ما يرتضيه وهو واجد الكثير المرتضى فإن نقده يكون أوقع وأنفذ ، وإصلاحه أقدر ، وحكمه أعدل . أما جعله مذهباً مرادفاً للفضيلة ومذهباً آخر مرادفاً للرديلة ، فليس ذلك من اعتدال أمثاله من العلماء .

* * *

جاء في كتاب الأغاني أن الأخطل الشاعر قال لرجل من شيان : (إن الرجل العالم بالشعر لا يبالي وحق الصليب إذا مر به البيت العائر السائر الجيد أمسلم قاله أم نصراني) وكل نقاد العرب قديماً وحديثاً يقولون مثل هذا القول سواء أكان الناقد من أدباء المذهب الجديد أم من أدباء المذهب القديم . ولو أن محدث الأخطل سألته عن اليهود والبوذيين لأضافهم إلى النصراني في قوله . وأنت ترى أن الأخطل أراد أن يؤكد قوله فحلف بحق الصليب . وكان كثير من المسلمين يفضلون الأخطل على غيره من شعراء عصره بالرغم من النعرة الدينية في قوله . وكان يحدث هذا في صدر الإسلام ولم يكن الدين في صدر الإسلام أقل أثراً في نفوس المسلمين منه اليوم ، وإنما كان الأدباء وسامعو الشعر أعرف بتذوق الشعر وأكثر حظاً من نشوته وأريجته من قراء اليوم . ولم يكن بين الأدباء في صدر الإسلام من يحسّ خوفاً على منزلته بين الأدباء والشعراء فيدفعه إلى أن يقول إن النصرانية أسقطت شعر الأخطل . نعم إن جريراً يعير الأخطل بخضوعه لرجال دينه . ولم يبحث النقاد عن عقيدة أبي تمام كي يحكموا بها على شعره . ولم يقل أحد من أمراء الشعر والنثر في عصور الأدب العربي إن الأخوة في الشعر أخوة في الله ، أو أن الأخوة في الله أخوة في الشعر . فهل كان أمراء البيان في الشعر والنثر في تلك العصور الطويلة على ضلال لا يفهمون الشعر ولا يجيدونه ولا يتبينون أصوله وشروطه وسننه ولا يعرفون كيف يتذوقونه ؟ أم أنهم أصابوا عند ما قصرُوا الأخوة في الدين على شعر حواشي ومتون كتب الفقه الديني ؟ أليس ادعاء بعض أدباء العصر لإحلال الشعر عامة منزلة شعر حواشي الفقه الديني دليلاً على فساد الذوق الشعري في هذا العصر ؟ ثم أليس في اتخاذهم وسائل الدول السياسية بنشر الدعوة ضد منافسيهم واتهامهم أنهم أنصار إبليس والذليّة ، ما يدل على جانب من الضعف ، وعلى أنهم إنما يريدون استغلال تعصب العامة وأشباه العامة في عصر لا يدرك فيه الرأي العام الشعر كما كان يدركه الرأي العام في عصر الأخطل ؟

وليت أن هذه الوسائل كانت تعين على عز وجاه في بلد للشعر فيه كل العز والجاه والمال ، ولكنها وسائل لا تغني قليلا ولا تقرب من عز أو جاه أو مال ، لأن هذه أمور لا تنال بالشعر إلا التافه الحقير منها وما أكثر طلابه .

أما الأستاذ الغمراوي فليست له مطامع دنيوية ، وإنما هي العقيدة التي تقدمت به وبهذا المبدأ الذي يريد أن يسنه للشعراء ؛ ولكنه لو كشف له عن سريرة الأدباء جميعا حتى أشدهم تعصبا للقديم لوجد في سريرتهم أنهم يقولون كما قال الأخطل وأنهم يعرفون من أدب اللغة العربية ما يقصر أخوة الدين على شعر الحواشي والمتون .

قال الأستاذ الغمراوي إن أدباء المذهب الجديد يأخذون عن الأوربيين ما يخالف التقاليد الإسلامية ، وإنهم إذا يريدون (تغلب دين على دين) أي دين الأوربيين على دين العرب المسلمين ، وإنهم يبيحون الشهوات ، وإنهم أنصار الرذيلة . وقد ناقض الأستاذ نفسه في هذا القول لأنهم لو كانوا يريدون تغليب المسيحية حقا ما أباحوا الشهوات ولا كانوا من أنصار الرذيلة . وإن إباحة الشهوات ليست مذهبا في الشعر أو النثر جديدا ، ففي الأدب العربي في كل عصر من هذه الإباحة ما ليس له مثل في هذا العصر . وكان الأدباء المبيحون للشهوات أمثال بشار وغيره لا يدينون بدين . وإن أدباء المذهب القديم في عصرنا لا يتكروا أن بشاراً وأبا نواس وغيرهما من مذهبهم الذين يدافعون عنه ، أي المذهب القديم ، وإن الفضائل إذا ليست عامة فيهم والردائل ليست عامة في خصومهم ولا التدين أيضاً ، وإنما هم يعرفون أن سليقة الشعر فسدت في أكثر القراء والرأي العام عموماً في عصر عظمت فيه قوة الرأي العام ونفوذه ، فهم يريدون استغلال تعصب الرأي العام الذي فسدت فيه سليقة الشعر ولم يبق له أو لطائفة كبيرة منه غير النعرة الدينية التي يريدون أن تستبيح كل شيء حتى الجون ابتغاء مرضات الله . فقد بلغ القراء خبر الحفلة التي أقيمت لإحياء ذكرى حافظ بك إبراهيم ، وقد نشرت الصحف القصائد التي قيلت فيها ، وكان بها من الجون ما لو قاله أحد الأدباء الشبان من أنصار المذهب الجديد لقال أدباء المذهب القديم للناس : انظروا إلى خصائص المذهب الجديد كيف يستبيح الجون في حضرة كبار

رجال الدولة والذين ينوبون عن المقام السامي ! أما والذين نظموا لم يكونوا من أدباء المذهب الجديد فهو إذاً ورع وتقوى وغير سامية على الفضائل في القول والعمل . هكذا ألف بعض الأدباء مجون الشعر العربي القديم حتى صار يُعدُّ من الأخلاق السامية . وما على الأديب في هذا العصر إلا أن يعلن على رعوس الشهود أنه من أنصار المذهب القديم فيباح له كل شيء من أجل عدائه للجديد ، ويكون مثله مثل الرجل الذي إذا عده العامة من أولياء الله الصالحين رفعوا عنه (الكلفة) وأباحوا له ما لا يباحون لغيره من عباد الله . فإذا ارتكب أحد (أولياء) العامة أمراً (ينتقد) وحاول أحد النظارة أن يعيبه به تجمعهم الناس حوله وكل يقول له : اتركه يا شيخ ولا تبعه ، لأنه من أولياء الله وعباده الصالحين وقد رفعت عنه (الكلفة) فهو غير مسؤول عما يفعل . ومن الغريب أن بعض الأدباء أراد أن يفهم الحاضرين أن حافظ بك مات شهيد الحرب التي شنها عليه أدباء المذهب الجديد ، ولم تكن هناك حرب وإنما انتقده الأستاذ المازني نقداً بريفاً خالياً من الفحش والمجون . أما الحرب فقد كانت سجالات بين أنصار حافظ وأنصار شوقي وكان الفريقان من أنصار المذهب القديم وكانا يستبيحان كل سلاح مهما كان ، وتشهد بذلك نسخ الجرائد الأسبوعية التي طبعت في ذلك العهد . وكان أشد الناس حرباً على حافظ بك أنصاره من المرتزقة وكانوا يصنعون صنع الجنود المرتزقة فيخذلونه في أثناء المعركة من أجل رشوة وأجر مُطمع من خصمه .

فإذا كان حافظ بك قد هزم في بعض معاركه فالذنب ذنب الجنود المرتزقة الذين خانوه والمعركة قائمة ولم يقدر خيانتهم . ولم يكن للمذهب الجديد وقتئذ أنصار عديدون ، ولو قامت بينه وبينهم معركة ما استطاعوا لكثرة أنصاره أن ينالوا منه ، ولم يكن لهم حول حتى يدبروا له الدسائس . فكل ما قيل من هذا القبيل في الحفلة من قبيل السمر بالقصص الخيالية ، وله منفعة أخرى وهي جلب العداء لأنصار المذهب الجديد بالطريقة التي بها يجلب لهم العداء إذا قيل إنهم أنصار إبليس اللعين . ولو أن حافظ بك إبراهيم كان اليوم حياً لضحك ضحكاً كثيراً إذا سمع ما يقوله أدباء المذهب القديم من أن أدباء المذهب الجديد نالوا منه ودسوا له . نعم إن الرجل كان محاطاً بالوشايات والسعايات من الأدباء ، ولا نغني أهل

السياسة فهذه مسألة أخرى ، وهذه الوشائات كان يتقدم بها الأدباء إما نكاية من بعضهم لبعض واستعانة بحافظ بك في تلك النكاية ، وإما نكاية لشوقي منافسه كما كان جلساء شوقي يسعون عنده بحافظ نكاية له .

ولو أنا رجعنا إلى ما ألف من المقالات والكتب منذ ثلاثين سنة ما وجدنا أثراً لهذا الاصطلاح : أعني اصطلاح تقسيم الأدب إلى جديد وقديم ، وإنما كان الشعراء الذين يسمون الآن أدباء المذهب الجديد يدعون إلى نبذ شعر الغزل المتكلف الذي كان مقدمة لقصائد المدح والهجاء والسياسة ، ونظم الشعر فيما تحسسه النفس من حب أو غير حب على طريقة شعراء الجاهلية وصدر الإسلام . وكانوا أيضاً يدعون إلى نبذ المغالاة في المحسنات اللفظية التي أولع بها شعراء الدولة العباسية والرجوع إلى طريقة شعراء الجاهلية وصدر الإسلام في تفضيل صنعة العاطفة أو ذكرى العاطفة (وذكرى العاطفة عاطفة) . وكانوا أيضاً يدعون إلى نبذ التضييق في أبواب الشعر ونبذ المغالاة في تقييد حرية القول والرجوع إلى شيء من حرية القول التي كانت في كثير من عصور الشعر العربي القديم من غير دعوة خاصة إلى إباحة حرية القول من أجل الإباحية في الخلق .

هذه كانت مبادئهم ؛ فهم إذاً كانوا أخلق بأن يدعوا رجعيين فهم كانوا رجعيين في طلب احتذاء شعراء الجاهلية وصدر الإسلام في وصف أحاسيس النفس وخواطرها رجوعاً عن الغزل الصناعي وأبواب القول الصناعي التي أولع بها المتأخرون . وكانوا رجعيين في طلب احتذاء سهولة العبارة وأقربها دلالة على الإحساس والمعنى كما كان يفعل شعراء الجاهلية وصدر الإسلام رجوعاً عن المبالغة في الصناعة التي أولع بها العباسيون . وكانوا رجعيين في طلبهم ألا يقصر الشعر على معان متفق عليها كما كان المتأخرون يفعلون والرجوع إلى طريقة المتقدمين في إظهار كل شاعر من خصائص نفسه وفكره وأن يباح له القول إذاً أكثر مما كان يباح للمتأخرين .

فالنزعة إلى التجديد كانت في أول الأمر نزعة رجعية كما ترى ؛ واتفق أن أنصارها قرأوا الشعر الأوربي فأروا أن مبادئ رجعتهم هي مبادئ الأدب الأوربي الصحيح السليم ، وأن الأدب الأوربي يعينهم على تحقيق تلك الرجعية ،

وأنه إذا تقدم بهم الأدب الأوربي فيكون تقدماً كما كان يتقدم أدب الجاهلية وصدر الإسلام لو أنه لم تعترضه عوارض الجمود والقيود المصطنعة التي تغلبت على الأدب العربي بعد ذلك .

فإذا كانت هذه النزعة قد دخلتها المغالاة فهي أمر طبيعي يعترض الأمور في أول الأمر حتى تستقر ؛ وإذا كانت قد تفرعت منها فروع بعيدة فهذه سنة طبيعية ، فالقرامطة والحشاشون والباطنية فروع بعيدة تفرعت من الشيعة كما تفرعت الشيعة من الإسلام . وربما كان من تلك الطوائف البعيدة ما ينكره الشيعة . كذلك تفرعت من نهضة التجديد الرجعية فروع بعيدة ولا تزال تتفرع ، ومن يحاسب نهضة التجديد عليها كمن يحاسب المسلمين عموماً على عقائد بعض الطوائف التي تفرعت من الإسلام .

تفرعت من شيعة التجديد طائفة لم تراع أنه إذا أريد الإقلال من صناعة العباسيين فلا بد من الإكثار من سلامة أسلوب كأسلوب شعراء صدر الإسلام مع تجنب حوشى الكلام ، فدعت هذه الطائفة إلى أن يكون أسلوب الشعر أقرب الأساليب إلى لغة الكلام ؛ وهذا لا عيب فيه إذا روعيت سلامة اللغة والعبارة . وتفرعت طائفة لم تراع أن وصف أحاسيس النفس وخواطرها ينبغي ألا يبلغ حد الإباحية في الخلق إذا أريد أن يحل شرح الأحاسيس والخواطر وبحثها محل الغزل وأبواب القول المصطنعة التي أولع بها المتأخرون . ولا ننكر أن أشد الشعراء حيطة في وصف النفس الانسانية وخواطرها على هذه الطريقة قد يشتط في بعض قوله ، ولكنه شطط محدود ولا يهدم فضيلة المذهب ، كما أن الغصة أو التخمة لا تقضي على فضيلة الأكل والطعام . وتفرعت طائفة لم تراع أن تجديد المعاني والأخيلة ينبغي ألا يتعدى المعاني والأخيلة التي يقرها ويفهمها العقل البشري سواء أكان مصرياً أو إنجليزياً أو صينياً . أما الأخيلة البعيدة وأوجه الشبه القصية والضيئلة والتي لا قيمة لها ليست من أوجه التشبيه في الشعر الراقي الذي يعد من الطراز الأول في أي مكان . وتفرعت طائفة ترى أن انقطاع الصلة بين الرموز والأمور التي يرمز إليها بالرموز ، وتدخل صور الرموز بعضها في بعض ، مما يروق بعض القراء لأنه يروع نفوسهم ، ونسوا أن طمس معالم الصور إذا راق فترة لجماعة

ليس من وسائل الشعر الخالد الذي يروق العقل البشري العالمي في كل زمان ومكان . وتفرعت طائفة تريد أن تحكم الوعي الباطني (أو العقل الباطن) بدل تحكيم ملكات العقل الظاهر المألوف ، ورأوا أن هذه وسيلة للغوص إلى أعماق النفس ونسوا أن الغوص في أعماق النفس يقتضي يقظة الوعين والعقلين الظاهر والباطن واتفاقهما وإلا كان ما يقوله القائل بالوعي الباطن وحده لا قيمة له .

إن أدباء المذهب القديم عندما يتحدثون عن نهضة التجديد يغفلون أسبابها والضرورة الاجتماعية التي دعت إليها ، وأنها في أولها كانت نزعة رجعية أو شبه رجعية ، وأن الأدب الأوربي درس ليشد أزر هذه النزعة الرجعية المقبولة ، وأن الطوائف المتطرفة التي تفرعت من النهضة لا تمثل النهضة كلها ، وأن النهضة لا يحكم عليها إلا بأحسن مظاهرها ، وأن أدباء المذهب القديم هم أيضاً قد تأثروا هذه المبادئ الرجعية الحميلة التي تحت عليها نهضة التجديد .

* * *

لا يدهش أحد إذا عددنا ما يسمى نزعة التجديد نزعة رجعية في أولها ، فقد أوضحت أنها في مبادئها كانت رجوعاً إلى مبادئ الشعر العربي القديم من قلة تكلف الصناعة ، ومن نظم الشعر بالعاطفة أو ذكرى العاطفة بدل نظمه تعمداً بالصنعة ، ومن البحث في خواطر النفس وشجونها وأشجانها والتعبير عنها بدل تنميق المعاني المتفق عليها . فلاشك أن شعر الجاهليين وشعر شعراء صدر الإسلام كان أكثر نصيباً من هذه المبادئ من شعر الدولة العباسية ، وإن كان لشعر الدولة العباسية روعة وفيه قوة ، ولكن أروعه وأقواه ما قارب طريقة الأقدمين وكان أقل تعملاً في الصناعة ، أو ما كانت صنعتها أشبه بالطبيعة .

ولا يدهش أحد إذا وجدنا أن هذه المبادئ يتفق فيها الشعر العربي القديم والشعر الأوربي الصحيح السليم ، وأن الصناعات الغريبة في الشعر الأوربي ما ظهرت إلا في عصرنا هذا ؛ ولكن كثيراً من أدبائنا الذين لا يعرفون اللغات يحكمون على الشعر الأوربي بشعر شعراء الرمزية أو شعراء الوعي الباطني وأمثالهم ، وهي طوائف حديثة في أوروبا كما هي حديثة في مصر ، ويغر أدبائنا ما يقع فيه بعض المطلعين على الأدب الأوربي من النقل الحرفي لأساليب الكلام والمصطلحات ، ولكل لغة خصائص في المصطلحات وأساليب الكلام إذا نقلت نقلاً حرفياً إلى لغة أخرى عدت معاني سخيفة . ومن هنا نشأت فكرة من يقول إن معاني وأخيلة الأدب الأوربي لا تتفق والذوق العربي .

ولكن مما لاشك فيه أنه بالرغم من اختلاف خصائص العربية والفرنسية ، فإن الشعر الأوربي قبل أطواره الحديثة كان في مبادئه الأساسية قريباً من الشعر العربي القديم قبل غلبة الصناعة عليه غلبة قضت على تلك المبادئ .

ولا يدهش أحد إذا قلت إن كل نهضة تجديد دخلت الأدب والشعر العربي حديثاً كانت نزعة رجعية ؛ فهضة البارودي وشوقي وحافظ وحفني ناصف

ومطران (في شعره الحديث) كانت أيضاً نهضة رجعية بدأها الساعاتي وقواها البارودي ومن أتى بعده ؛ وهي كانت نهضة رجعية لأنهم رجعوا بالشعر عن طريقة البهاء زهير وابن الفارض والبستي وابن نباتة المصري وابن النحاس وخليل الصفدي : طريقة الجناس الغالب والنكات ، إلى طريقة الصنعة العالية القوية صنعة مسلم بن الوليد وأبي تمام وأضرابهما . وترى هذه الرجعية ظاهرة في شعر شوقي أعظم ظهور ، فقد بدأ بمدح البهاء زهير في مقدمة الطبعة الأولى القديمة من الشوقيات وأسرف في مدحه . وترى شعر شوقي في صباه مما أثبتته في الطبعة القديمة بعضه أشبه بشعر المتأخرين ، وأظن أنه حذفه ولم يثبتته في الطبعة الحديثة ؛ ثم صار شعره يقترب من نسق فطاحل الدولة العباسية أمثال مسلم وأبي تمام والبحتري .

وكان منتهى أرب الشاعر قبل نهضة البارودي وشوقي وحافظ أن يكثر من الجناس وأنواع البديع حتى ليقال إن أحدهم أفنى عمره في صنع قصيدة بديعة كبيرة شحنها بما يقرأ طرداً وعكساً ، وما يقرأ من أسفل ومن أعلى ، وبالجناس وأنواعه ، وأشباهه من المحسنات ، فاحتال عليه أصدقاؤه وسرقوها منه فمات كمدأ وراح ضحية الطرد والعكس وصريع الجناس . وكان الأدباء إذا أردوا أن يستجيدوا بيتاً أنشدوا بيت ابن نباتة المصري ، ولا أذكر كلماته بالضبط ، ولكنه يمدح سلطان مدينة حماء في الشام فيقول : إن (حماء) (المدينة) علمتهم نعمى الممدوح حتى غدا كل منهم يحب (حماته) (أي أم زوجه) . هذه هي (مفارقات) النكات العامية المصرية التي كانت تطرب الأدباء . أو قول البهاء زهير لمعشوقته إنه دعاها (ست) أي سيدة ، لأنها ملكت جهاته (الست) .

فرجوع البارودي وشوقي وحافظ إلى عصر أقدم من هذا العصر لا بد أن يسمى رجعية ، وليست كل رجعية ذميمة .

والنزعة الحديثة إلى التجديد هي في الحقيقة تكملة النزعة الرجعية التي نشطها البارودي ، فكانت نزعة التجديد نزعة تفضيل (مبادئ) الشعر العربي الأقدم من العباسي ومن العباسي ما يقارب ذلك الشعر . وقد شرحنا تلك المبادئ . والذي غطي على هذه الحقيقة أثر الأدب الأوربي ، وفتح أبواباً جديدة من أبواب

القول ، وشده أزر الخيال والفكر . وغطى على الحقيقة أكثر من كل ذلك تشعب نزعة التجديد إلى فروع جديدة بعيدة كالرمزية وغيرها .

ولكننا إذا نظرنا إلى هذه الفروع وجدنا أن كلا منها مغالاة في مبدأ من تلك المبادئ كما فصلنا في المقال السابق ؛ فالذين يريدون تغليب الوعي الباطن مثلاً إنما تفرعوا من مبدأ جعل الشعر بحثاً في صفات النفس وخواطرها وشجونها وأشجانها بدل ترديد معاني متفق ومصطلح عليها . ولاشك أن شعراء الجاهلية وصدر الإسلام كانوا ينظمون بالعاطفة أكثر من شعراء الدولة العباسية . ومعنى النظم بالعاطفة البحث في شجون النفس وأشجانها ، فهذه الطائفة في نشأتها كانت رجوعاً إلى طريقة الشعر القديم ، وإن كانت قد غالت محاكاة للنزعات الحديثة في الأدب الأوربي العصري . وبهذه الطريقة نستطيع أن نرد كل طائفة من طوائف وفروع نزعة التجديد إلى أصلين : أصل في الأدب العربي القديم غالت فيه ، وأصل من محاكاة النزعات الحديثة في الأدب الأوربي العصري . فإذا تتبع الأستاذ الغمراوي الأسباب والعوامل التي أثرت في الأدب العربي الحديث وجد أنه لم تكن هناك مؤامرة على الدين والفضيلة نشأت عنها النزعة إلى التجديد ؛ فان تتبع الحوادث يُظهر كيف أن بعض أدباء المذهب القديم يقبلون (النتيجة) العارضة الثانوية المحدودة وهي الشذوذ والشطط فيجعلونها (سبب) نهضة التجديد كلها ؛ وقد أوضحنا أن الشذوذ والشطط موجودان في كل عصر ومذهب وذكرنا شواهد وأمثلة .

وإذا نظرنا في تاريخ النزعات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والأدبية وجدنا أنها كانت مصحوبة كلها أو أكثرها بشيء من الشطط ؛ وهذا الشطط إما أن يكون متعمداً لحاربة الجمود أو الوقوف ، أو غير متعمد ، بل تندفع إليه بعض النفوس قهراً . وقد لا يعرف الشطط ولا يميز من غير الشطط إلا بعد عصور طويلة تمحص فيها الأمور . ولو أن كل نزعة من النزعات البشرية رفضت كلها بسبب ما يصحبها من الشطط ما تغيرت الإنسانية . ومن الحقائق الثابتة أن بعض الخاصة كانوا في كل نزعة تجديد يخلطون بين مبادئ النزعة ومظاهرها ؛ وبين ما يصحبها من الشطط ، حتى كانوا يحسبون أن الجنس البشري مقضي

عليه بسبب تلك النزعة . فالنزعة إلى الديمقراطية في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كانت مصحوبة بشطط . وحسب بعض الخاصة أنه سيقضي على الإنسانية ، وأن القيود والشرائع الاجتماعية مقضى عليها بالاضمحلال ، فرفضوا النزعة بأجمعها بدل رفض الشطط وحده . وهذا هو ما حدث في نزعة الإصلاح الديني في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أو ما حدث في النزعة إلى تحرير الرقيق في أمريكا . ولعل الشطط الذي كان في رفض النزعة كلها كان يغفر الشطط الذي يصحبها ويهون أمره في نفوس أنصارها ويساعد على نجاحها .

ومما يشاهد أيضاً في حياة الأمم أن الفساد الكثير المؤلف قد لا يثير من التسخط قدر ما يثيره الفساد القليل غير المؤلف ، وإن كان الأول أَوْحَم عاقبة وأكثر ضرراً . والنوع الأول من الفساد هو كما في الأدب العربي من مجون وإباحية صقلهما الدهر واعتادهما القراء حتى صاروا لا يثيران تسخطاً بل يُنظر إليهما كما يُنظر الأب إلى ابنه الكثير الدعابة واللعب فيلومه ولكنه يحن إليه ويعطف عليه وتزيده دعابته ولعبه حبا له .

ومن المشاهد أيضاً أن الأديب أو المفكر قد يدافع عن مذهب وهو يعمل على هدمه من غير عمد ، أو يعمل على الأقل لإذاعة نقيضه بمؤلفاته وهو في بعضها يعمل لنقيض هذا النقيض . فشوقي الذي أطرى البهاء زهير في مقدمة الطبعة القديمة من الشوقيات ، هو شوقي الذي عمل بشعره المتين الأخير للقضاء على طريقة البهاء زهير وأضرابه . والرافعي الذي يروج أشد مذاهب الأدب الأوربي الحديث تطرفاً وهو مبدأ الرمزية من غير قصد بتأليف (حديث القمر) ، هو الرافعي الذي ينتقد الأدب الأوربي أشد انتقاد في مقالاته . وكم من أديب قريب العهد بالأدب لولا بعض كتب الرافعي ما احتذى هذا المذهب فيما كتب .

فالعقل أو الوعي الباطن قد يُموّه على العقل الظاهر الناقد . أليس في بعض شعر الصوفيين من شعراء اللغة العربية شهوة مكتومة ييوح بها العقل الباطن بالرغم من صرف العقل الظاهر معناها إلى الذات الالهية ؟ وهذا مع أن أوصاف المحبوب لا تشير إلا إلى إنسان جميل وإن القول شهوة محض .

ولعل الأستاذ قد قرأ وصف النابغة الذبياني للمتجردة زوجة النعمان واطلع على ما فيها من وصف عورة المرأة وما هو أشد من أشد من وصف عورتها في قوله (وإذا ... وإذا) . نعم إن النابغة شاعر جاهلي ، ولكن استشهاد الأفاضل الأجلاء من شيوخ الأدب والعلم بهذا الوصف ونشره في الكتب التي يعدونها للقراء ومنهم الفتيان والفتيات ، يدل على أن العقل النلقد فيهم قد سَهَا عن أن هذا الوصف يخالف العرف والتقاليد والآداب الإسلامية .

وهؤلاء الأفاضل هم الذين يسخطون على وصف الغواني في لباس البحر وصفاً لا يبلغ مبلغ وصف العورة والفجر كما فعل النابغة وكما فعل كثير من أدباء العرب في العصور المختلفة احتذاء للنابغة حتى في عبارات وصفه .

على أن رجوع نزعة التجديد إلى طريقة النظم بالعاطفة أو بذكرى العاطفة ، ومحاولة الإقلال من المغالاة بالصنعة العباسية ليس من جهل بفضل الأدب العربي في العصر العباسي ، ولا من جهل بفساد شعرائه وأدبائه ، ولكن هؤلاء الشعراء شغلوا بمدح الخلفاء والأمراء ووضعوا لهذا المدح أوضاعاً . وإذا قرأت أجزاء مختارات البارودي هالك نصيب باب المدح من تلك الأجزاء الأربعة ، وهالك تردد المعاني في ذلك الباب ؛ وهذا معنى ما أشير إليه من جمود المعاني والموضوعات وغلبة الصنعة على العاطفة النفسية ، وذلك لا ينفي أن نصيب هذا العصر من التفكير وحرية القول كان عظيماً . ومما يؤسف له أن حرية القول كان أكثرها في المجون إلا عند بعض المفكرين من الشعراء . ولا ينفي أن تلك الصنعة التي ما لبثت أن تحجرت في أوضاع المدح كانت في أول أمرها تجديداً ، ولكنها في المتأخرين ضاع التجديد فيها وتدلّت إما إلى محاكاة عبارات ومعاني السابقين ، وإما إلى ما رأينا من النكات اللفظية والجناس وأشباهه من الأمور التي استغنى بها حتى عن روعة الأسلوب وفخامته ، إلى أن جاء البارودي وحافظ وشوقي فعادوا إلى محاكاة أفخم أساليب العصر العباسي الأول . ثم جاءت نزعة المذهب الجديد وحاولت إحداث شيء من التجديد في أبواب القول ومعانيه وأخيلته ، وفي طريقة بحثه للموضوعات بالرجوع إلى خواطر النفس وأحاسيسها . فإذا كان بعض أدبائها قد وصف في الأحيان خواطر لا يصح وصفها ، فإنه أمر عارض لا يصح

أن يكون عنواناً للمذهب ، أو أن يفسر به المذهب ؛ وهو على أي حال أهون مما في كتب الأدب القديم من وصف فُجْرٍ ومن مجون يقرؤه الفتيات والفتيان في مكتبات مدارسهم كل يوم حتى صغارهم الذين يكاد المرء يعددهم من الأطفال . فبتشأ هؤلاء الأطفال على النفاق والتبجح إذا ما لقنهم الملقنون أن الأدب الأوربي من آداب الرذيلة ، وهم منغمسون في حمأة الرذيلة بسبب كتب الأدب العربي القديمة . أما ما يأخذه بعض كتاب المذهب القديم على المذهب الجديد من الولوع بشعر التأمل فهو أعجب العجب . وهم إنما يخلطون بين شعر التأمل وبين شعر متون وحواشي كتب الفلسفة ، أو بين شعر التأمل وشعر تعليم الأولاد . فشعر التأمل في الحياة والنفس هو خلاصة النفس ؛ وهو لا يختلف عن الشعر الذي يقال في وصف أحاسيس النفس في موضوعه ما دمت تحسُّ فيه العاطفة الشعرية . ولا يجوز الخط منه إلا إذا خلا من كل أثر للعاطفة النفسية ؛ فليس شعر التأمل في المرتبة الثانية ، وإلا أخرجنا أبا العلاء المعري والمتنبي من عدة الشعراء وأخرجنا أجود ما في شكسبير . وقد فرق الأدب الأوربي بين شعر التأمل وبين شعر متون الفلسفة ، كما فرق بين شعر التأمل وبين الشعر التعليمي في الأسماء ؛ فلتراجع هذه الأسماء في مصادرها .

ردّ على ردّ

بين القديم والجديد^(١)

يجمع الأستاذ الغمراوي في نفسه من صفات الخلق العظيم ما لا يتفق إلا لقليل من المهذّبين الأفاضل ؛ فهو يغار على الفضيلة والدين ، ويجمع إلى غيرته لطف المناظرة والإنصاف وآداب الحديث والمجادلة بالتي هي أحسن ؛ وهذه رعاية من الله ، نرجو أن يديم الله عليه نعمته . وقد ظهر عدل الأستاذ وإنصافه في اعترافه بأن في الأدب القديم أكثر مما يشكو منه مما في الأدب الحديث ، وفسر القديم بأنه ليس القدم الزمني ، فالقديم والحديث في اصطلاح الأستاذ صفات لا تدل على الزمن ، وضرب مثلاً بشعر عمر بن أبي ربيعة وقال : إنه لو كان في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لنفاه بسبب غزله . فعمر بن أبي ربيعة إذاً على قدمه الزمني ليس من المذهب القديم في الشعر والأدب على حد اصطلاح الأستاذ ، إذ أن القديم في اصطلاح الأستاذ هو من لم يقل غزلاً يثير شجون النفس وشهواتها وتعلقها بفتنة الحسن . وليعذرني الأستاذ إذا قلت إنه يصعب عليه أن يجد شاعراً واحداً يصح أن ينطبق عليه اصطلاح القديم في عرفه ، فهذا الرافعي على تقواه ودينه وفضله له في الغزل نثراً وشعراً أشياء (أشهى) من شعر عمر بن أبي ربيعة . ألم يقرأ الأستاذ الغمراوي للرافعي وصفه للراقصة ومحاسن جسمها وقصته معها ؟ ومع ذلك فالأستاذ الغمراوي يقول إن أدب الرافعي يمثل الأدب القديم في اصطلاحه ، مع أن الأستاذ الغمراوي لو كان خليفة وعرض عليه غزل عمر بن أبي ربيعة وبعض ما قاله الرافعي شعراً ونثراً في الغزل ووصف مفاتن الحسن ولذة التقبيل ومحاسن جسم المرأة لأمر الأستاذ بنفي الشاعرين : ابن أبي ربيعة والرافعي معاً . وإذا كان الأستاذ في شك من أن الرافعي له أشياء أشهى من أشياء عمر بن أبي ربيعة ذكرنا له طرفاً منها ورضينا بحكمه وهو أعدل الحاكمين من الناس . بل نحن نترك للأستاذ الخيار فليختر أي شاعر ونحن نورد له ما يستحق به النفي لو وكل الأمر إلى الأستاذ الغمراوي في نفي

الشعراء ونورد ما يستحق به النفي ونقارنه بما استحق به عمر بن أبي ربيعة النفي ونقبل حكم الأستاذ الغمراوي في المقارنة وهو خير الحاكمين .

إننا ما أردنا أن نعذر شطط المتأخرين بشطط المتقدمين كما ذكر الأستاذ وإنما أردنا أن نبين أولاً أن النفس البشرية واحدة في كل زمان ومكان مهما اختلفت الفروق الظاهرة وبالرغم من شذوذ الآحاد بالنقاوة النادرة أو النجاسة البالغة النادرة . وأردنا أن نفسر أثر المتقدمين في أقوال المتأخرين وأن نقول إن الشطط في وصف المفاتن وفي شرح الشكوك النفسية لم يأتنا من ناحية الإفرنج وحدهم بل جاءتنا به مؤلفات العرب ولاسيما عندما أذخلت الطباعة وطبعت المخطوطات العربية القديمة والحديثة . على أن النفس الإنسانية ياسيدي الأستاذ ينبوع يفيض بكل ذلك من غير حاجة إلى كتب العرب أو كتب الأوربيين ؟ وإن شاء الأستاذ فليترد أماكن الناس الذين لم يتأثروا كثيراً بكتب العرب ولا بكتب الإفرنج ويسمع هواجس نفوسهم .

على أن في ذكر الأستاذ التجاء عمر بن الخطاب إلى النفي ما يدل على أن النفوس في عهد عمر رضي الله عنه لم تكن تمتنع عن التعلق بمفاتن الحسن ومحاسن الحياة ، ولعل الأستاذ قد أذكرته التجاء عمر إلى النفي قصة سماع عمر غناء التي تغنت بهذا البيت :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

فنفى عمر رضي الله عنه نصراً هذا . ولو رجع الأستاذ إلى ما قبل سيدنا عمر وتدبر حكمة الآية الكريمة التي تنهى الناس عن قرب الصلاة وهم سكارى لرأى عبرة تسلك النفوس البشرية في كل عصر في صعيد واحد بالرغم من تفاوتها . وأستحلف الأستاذ أن يحكم على تلذذ كعب بن زهير بذكره كبر عجز حبيبته في قصيدة (بانت سعاد) عندما قال (هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة) وتلذذه بذكره كبر العجز في قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وهي قصيدة يتبرك بها بعض الناس ، وبعضهم يتخذها حجاباً وتميمة بما فيها من التلذذ بذكر كبر العجز من غير فطنة إلى ما فيها . ومع ذلك قد مر النبي صلى الله عليه وسلم بغزل كعب هذا مر الكرام بما كان يدعو إليه من العقيدة السمحة وتألف النفوس ومعرفته ضعف النفس وقصورها .

فماذا كان يصنع الأستاذ الغمراوي لو أن شاعراً مدحه بقصيدة تغزل في أولها وتلذذ في غزله بذكر كِبَرِ عَجْزِ حبيته ؟ هل كان يتغاضى كما تغاضى النبي صلى الله عليه وسلم أم كان ينفيه كما أراد أن ينفى عمر بن أبي ربيعة ؟ وماذا كان يقول الأستاذ لو أن شاعراً انجليزيا مدح ملك إنجلترا ومقام الملك دون مقام النبوة فقال الشاعر في قصيدته (إن حبيتي يا كنج جورج لها عجز كبير) ؟ إننا يا أستاذ نضرب هذه الأمثال لنبين أن الناس ناس في كل زمان ومكان ، وأن النفس البشرية واحدة مهما تباينت واختلفت صفاتها . ولو كان الأستاذ في شك من ذلك فليراجع ديوان حسان بن ثابت فيراه في قصيدة يتهم أبا الوليد بن المغيرة بمحبة غلام رومي جميل كان مملوكاً له ، وبأنه علق صورة الغلام كي ينظر إليها إذا غاب عن نظره ، ويتهم أمه بمحبة الغلام أيضاً . (صفحة ٣٢٩ طبعة السعادة شرح العباني) . ولو رجع الأستاذ إلى كتاب (العقد الفريد) لقرأ أن سائلاً سأل عبد الله بن العباس ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم : هل قول المجنون ينقض الوضوء ؟ فقال : لا . وأنشد بيتاً فيه مجنون وكانت قد حانت الصلاة فقام وصلى للدلالة على أن شعر المجنون لم ينقض وضوءه . وفي حالة أخرى سمع وهو يحذو بيت فيه مجنون . ولو تقصى الأستاذ أخبار سبي الرقيق من المدن الفارسية والرومية التي فتحت عنوة وأثر ورود هذا السبي إلى شبه جزيرة العرب ، وما كان يرد قبله من جلب تجارة الرقيق قبل الإسلام لعلم أن الولوع بمفاتن الحسن لم يكن مقصوراً على الشعراء المتقدمين أو المتأخرين . ونحن لا نريد أن نعذر حالة الناس في عصرنا . فلعل التعلق بمفاتن الدنيا في عصرنا أضر وأفسد إذ أن القوى الحيوية الخلقية العظيمة في نفوس المتقدمين كانت تستطيع موازنة ضعف هذا التعلق ، وانعدام هذه القوى الخلقية الحيوية في عصرنا يزيد ضرر التعلق بمفاتن الحسن وشهواته . نعلم ذلك ونوافق الأستاذ على ضرورة معالجة هذه المسألة ، ولكن لا يكون ذلك إلا بالتربية وتطهير الكتب ولاسيما القديمة . أما أننا رجعنا إلى مبدأ نهضة التجديد فالأستاذ نفسه يعترف بأن التجديد في الأدب روح لا قالب ، وأن هذه الروح مستمدة من نظام التعليم الحديث ، ومن الأنظمة التي اقتبست من الأنظمة والشرائع والسنن الأوروبية ، ومن البعثات العلمية إلى أوروبا وأثرها في النفوس ، ومن الكتب التي

ترجمت ؛ وما دامت المسألة مسألة روح لا قالب فلا يستطيع الأستاذ فصل التجديد في العلوم والتعليم والنظم والشرائع عن التجديد في الأدب وهو لم يحاول أن يفعل ذلك . أما أننا فسرنا قوله : (تغليب دين على دين) بغير ما أراد فعذرنا في ذلك أنه كان يقارن بين الثقافة والحضارة والدين عند العرب وعند الأوروبيين فلم يخطر ببالنا أنه يعني بالدين عند إطلاقه على الأوروبيين معنى الضلال والباطل وإنما ظننا أنه يعني دينهم ، ولنا العذر أو بعض العذر . وأما قول الأستاذ إن حافظ إبراهيم رجع بالغزل إلى طريقة الجاهلية وصدر الإسلام أي طريقة الغزل بالعاطفة كما فعل العذريون فهذا ما لا يقول به حافظ نفسه ولم يقل به أديب قبل الأستاذ . والأصح وهو ما قلناه من أن البارودي وشوقي وحافظ أنقلوا الأدب من طريقة ابن حجة الحموي وخليل بن أليك الصفدي وصفي الدين الحلبي وأشباههم ورجعوا به إلى طريقة مسلم بن الوليد وأبي تمام والبحري وحسبهم هذا فخراً . وقد جعلنا أكثر قولنا في التجديد في الشعر لأن الباعث على مقالات الأستاذ كان شعر الرافعي والعقاد ، ولم نقصر التجديد على محاولة إدخال العاطفة كشرط أساسي في الغزل بل قلنا إنها شرط أساسي في كل شعر ، وإن الصنعة لازمة ، ولكن كخادمة للتعبير عن النفس والحياة وعواطف النفس وأحاسيسها فيهما ، فتحجر الصنعة من غير بحث في النفس قيد ، والتخلص من جمود ذلك التحجر حرية ، وهي الحرية التي أردناها في قولنا . وقد فسرنا ذلك بإطالة وأوضحنا أن هذه الحرية ليس معناها التخلص من قيود العرف أو الدين ، فنرجو الأستاذ أن يرجع إلى ما فصلنا من الكلام عنها . وقد اعترفنا للأستاذ بما في نزعة التجديد من عيوب وحبذا لو رجع الأستاذ إلى ذلك التفسير والتعليل ، وقلنا إنها عيوب عارضة وليست كل شيء . أما المسائل الاجتماعية التي ذكرها الأستاذ فهي أمور يختلف فيها الأدباء وغير الأدباء ويختلف فيها الناس في كل عصر ؛ ولو شاء الأستاذ لذكرنا من أقوال كتاب العرب وشعرائهم ما هو أشد من أقوال طه حسين وهيكمل وقاسم أمين . ومن الغريب أن الأستاذ لا يرى حرجاً في الاقتباس من علوم أوربا ويرى حرجاً في الاقتباس من مذاهبهم وأبواب أدبهم ، وإذا كان هناك حرج فالخرج في الحالتين .

بين القديم والجديد ^(١)

عاب الأستاذ الغمراوي على عميد كلية الآداب الدكتور طه أنه اختار في كتاب (حديث الأربعاء) مجموعة من شعر المجون العباسي ، ولا أريد أن أتعرض الآن لهذا الاختيار بنقد مطول وإن كنت أعتقد أنه جعل الكتاب غير لائق إلا لقراءة المؤرخ الباحث في آداب الشعوب في العصور المختلفة ، وأنه ليس للقراء عموماً ؛ وهذا لم يكن رأي مؤلفه عندما ألفه ، فإني أذكر أنه عاب على الشيخ الخضري حذفه المجون من نسخة الأغاني التي هذبها وقال : إن دارس الأدب لابد أن يقرأ هذا الشعر كيلا يخطئ في الحكم على عصره . وكان الدكتور يجد له طلاوة خاصة يستحق من أجلها الصيانة . ولا أدري هل الدكتور لا يزال على هذا الرأي أم أن جلال المنصب قد حوره ؛ لكنني أريد أن أستخلص من ذكر الأستاذ الغمراوي كتاب (حديث الأربعاء) حجة على الأستاذ الغمراوي ؛ فالشعر الذي اختاره المؤلف فيه شعر عربي ، والأستاذ الغمراوي يقول إن الأدب الأوربي هو الذي أفسد المذهب الجديد في الأدب بمجونه . فكأنما يريد الأستاذ الغمراوي أن يقول إن اطلاع الدكتور طه حسين بك على الأدب الأوربي هو الذي دعاه إلى اختيار شعر الحسين بن الضحاك وشعر أبي نواس وغيرهما . فإذا كان هذا قصده ومعناه فإن الأستاذ الغمراوي يكون على حد اصطلاح الأوربيين كمن يضع العربية أمام الفرس بدل أن يضع الفرس أمام العربية وهو الترتيب الطبيعي ، لأن الدكتور طه قرأ الشعر العباسي قبل أن يقرأ الأدب الأوربي ، وتأثر بالشعر العربي قبل أن يتأثر بالشعر الأوربي . وإني واثق أنه قد اطلع في الأدب الأوربي على الوقور وغير الوقور من الشعر . اطلع على شعر سوفوكليز ويوريديس وإسكيليس . فهل يريد الأستاذ الغمراوي أن يقول إن اطلاع الدكتور طه حسين على شعر سوفوكليز مثلاً هو الذي أغراه باختيار شعر الحسين بن الضحاك ؟ إنه إن قال هذا القول دل على أنه لم يطلع على شعر سوفوكليز . وقس على ذلك غيره من الشعراء ولا أدري أي الشعراء الأوربيين هم الذين أوعزوا إلى الدكتور باختيار شعر بجان العرب . هل قراءته لشعر بودلير أم قراءته لشعر فرلين ؟

لاني لم أقرأ في شعر بودلير وفرلين (وقد قرأت بعضه) ما يماثل بعض شعر أبي نواس والحسين بن الضحاك في صراحته . ولا أظن أن الجمهور الأوربي كان يطبق من بودلير أو فرلين صراحة كصراحة أبي نواس والحسين بن الضحاك . إذاً يستحيل أن يكون بودلير أو فرلين هو الذي أغرى الدكتور باختيار شعر الحسين ابن الضحاك أو شعر أبي نواس ، لأن الأشد صراحة في المجون هو الذي يبيح ما هو أقل منه شدة . فأبو نواس هو الذي يبيح فرلين وبودلير ، وليس بودلير هو الذي يبيح أبا نواس . وإذا عرفنا أن الدكتور تأثر بالشعر العربي الأشد صراحة في صباه ولم يطلع على الشعر الأوربي الأقل صراحة إلا بعد أن رسخ أثر الأول في نفسه علمنا أن ما زعمه الأستاذ من أثر الشعر الأوربي خاصة والأدب الأوربي عامة في التأثير على المؤلف وفي تعيين اختياره لما اختار في كتاب (حديث الأربعاء) زعم غير رجيح . وعلى هذا القياس يكون أيضاً زعمه غير رجيح في تعليل اختيار الدكتور طه حسين بك للقصص الفرنسية التي كان ينقلها إلى العربية ، وكان ينشرها هيكل في السياسة الأسبوعية ، وهي القصص التي يشكو منها الأستاذ الغمراوي ^(١) فإنها مهما بلغت في صراحتها ، أقل صراحة مما قرأه الدكتور طه في صباه من القصص العربية في كتاب (مصارع العشاق) ، وغيره ؛ وإذا يكون مثل الأستاذ الغمراوي في تعليله كمثّل من يحسب السبب نتيجة والنتيجة سبباً ، أو كمن يقوم بتجربة كيميائية في المعمل فيبدأ التجربة من آخر خطواتها سائراً إلى أولها . والحقيقة أن الأستاذ الغمراوي أحياناً في مقالاته يتخلى عن التعليل الطبيعي ويفضل التعليل المصطنع ، ويتخلى عن ترتيب المؤثرات الطبيعي ويفضل الترتيب المصطنع . فهو مثلاً يقول إن في المذهب الجديد شططاً ، وبدلاً من أن يعلل هذا الشطط التعليل الطبيعي القريب بما اكتسبته العقول والنفوس من شغف بتذوق التجارب النفسية والعقلية بسبب الخواطر الاجتماعية وغير الاجتماعية ، وهذا الشغف قد يؤدي إلى الشطط ؛ وبدلاً من أن يعلله بازدياد الحرية السياسية والقانونية وهي قد تؤدي إلى هذا الشطط ؛ وبدلاً من أن يعلله بأنه

(١) يحسن بالأستاذ الغمراوي أن يضع موازنة بين قصص (الأغاني) و (فاكهة الخلفاء) و (مصارع العشاق) وبين القصص التي نشرها طه حسين وهيكل ليفسر سبب إغفاله أثر كتب العربية .

من أثر نشر الطباعة العربية الحديثة للكتب العربية التي فيها أمثال ما يشكو منه كما علل المؤرخون الأوروبيون بعض الشهوات في نزعة التجديد والإحياء في القرن السادس عشر في أوروبا بطبع كتب الأدب الإغريقي القديمة - أقول بدل أن يأخذ بهذه الأسباب الطبيعية التي لها نظائر في التاريخ - والتاريخ يفسر بعضه بعضاً - تراه يغفل كل هذه الأمور ويقول : إن أعداء الدين الإسلامي من الأوروبيين رأوا أنهم لا يستطيعون النيل من الإسلام قدر ما ينالون منه بمؤلفات الدكتور طه حسين ومؤلفات هيكل باشا القديمة قبل كتاب « حياة محمد » و« منزل الوحي » . وقد يسيء القاري فهم تحليل الأستاذ الغمراوي ويتساءل : هل يعني الأستاذ الغمراوي أن نزعة التجديد دسيسة مقصودة مدبرة ؟ أرجو ألا يجسم الوهم المسألة للأستاذ إلى هذا الحد ، فإنه عالم قد اختبر البحث العلمي ، وهو كالعلماء لا بد أن يترك التحليل البعيد ما دام هناك تحليل طبيعي له شواهد ونظائر في التاريخ كما أوضحنا بذكر ما كان من الشطط في نهضة إحياء العلوم في أوروبا في القرن السادس عشر . فلو أن مؤرخاً زعم أن الوثنيين خفية راموا القضاء على المسيحية بيثهم الشهوات والمفاسد في الكتب الإغريقية ما كان تحليله بعيداً عن طريقة الأستاذ الغمراوي في تحليل شطط النزعة الحديثة إلى التجديد . أو لو أن مؤرخاً زعم أن الفرس والروم في صدر الإسلام أرادوا النيل من الإسلام بيثهم المفاسد والترف حسداً وحققاً ما كان تحليله بعيداً عن تحليل الأستاذ . أو لو أن مؤرخاً زعم أن مفكري الإغريق حاولوا إفساد العقائد الإسلامية في عصر الدولة العباسية بيثهم روح التفكير الحر المطلق من قيود الدين حقاً وحققاً على الدين الإسلامي ما كان تحليله بعيداً عن تحليل الأستاذ . والحقيقة أننا ربما نكون قد فهمنا من كلامه عن أعداء الدين الإسلامي ومحاولاتهم القضاء على الدين الإسلامي بنزعة التجديد ومؤلفات المجددين المصريين أكثر مما يقصد الأستاذ ، لأننا لا نستطيع أن نتصور أن عالماً جليلاً كالأستاذ الغمراوي يريد أن يقول : إن بين الدكتور طه مثلاً وبين أعداء الدين من الأوروبيين تفاهماً واتفاقاً على الدين الإسلامي . إنما ينبغي ألا يترك الأستاذ لجمهور القراء موضع لبس ، لأن اللبس في هذه الأمور قد تكون له عواقب خطيرة . ولا أدري لماذا اعترف الأستاذ الغمراوي بما في الأدب القديم من مفاسد ولم يستطع أن يعترف بما لهذه المفاسد من أثر في الأدب الجديد ،

وما هذه إلا خطوة بعد تلك الخطوة ، وهي نتيجة لها ؛ ولا يستطيع أن يخطو خطوة إلا وهو ينظر إلى خطوته الثانية ؛ وقد خطونا خطوتين فاعترفنا أن الأدب الجديد به عيوب وأن بعضها يرجع إلى بعض المؤلفات الأوربية ؛ فالخليق بالأستاذ أن يعترف بأن بعضها أيضاً أو أكثرها يرجع إلى قدوة المؤلفات العربية ؛ والخليق به أن يعترف أن ليس كل الأدب الأوربي من نوع القصص التي كان يشكو من نشر السياسة الأسبوعية لها ، وأن يعترف أنه إذا كان بعضها صريحاً في تصوير الشهوات فإن بعضها جليل ؛ وأن الصريح منها أقل صراحة من بعض ما في كتب القصص العربية ؛ وأن يعترف أن شاعراً كشكسبير لا خطر منه على الإسلام ، فلا هو مبشر بالمسيحية ولا هو ملحد وداعية للإلحاد . وما يصدق في الكلام عن شكسبير يصدق في الكلام عن ألف شاعر وألف كاتب من شعراء الأوربيين وكتابهم . وخليق بالأستاذ أن يعترف أيضاً أن بين الكيميائيين وعلماء الطبيعة الأوربيين من هم أشد خطراً على الإسلام من كثير من أدبائهم ، لا لأنهم يحقدون على الإسلام ويريدون الكيد له ، بل لأن علمهم الطبيعي شط بهم عن الأديان . وأظن أن لنا بعض العذر إذا فهمنا بعض ما فهمنا من قول الأستاذ عن أعداء الدين الإسلامي من الأوربيين إذ قال إنهم أرادوا ألا يهاجموه مواجهة بل بحركة التفاف ، وأن حركة الالتفاف هذه هي نزعة بعض الكتاب المصريين إلى التجديد ، وذكر مؤلفات الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب ومؤلفات هيكل القديمة ، فبالله كيف لا يكون للجمهور العذر إذا فهم من قول الأستاذ الغمراوي أن الدكتور طه حسين وهيكل من دعاة أعداء الدين الإسلامي ومن عمالهم السريين القائمين بحركة الالتفاف هذه بدل مهاجمة الدين الإسلامي مواجهة . وعلى فرض أن تأليف الدكتور طه كتاب (على هامش السيرة) وتأليف هيكل (حياة محمد) و (في منزل الوحي) لم يقنع الأستاذ الغمراوي بخطأ رأيه فيهما ألا يقنعه تأليفهما هذه الكتب أنهما لا يريدان معاونة الحاقدين على الدين الإسلامي من الأوربيين للقيام بحركة التفاف كما يقول الأستاذ وأنه إن كان في تأليفهما القديم أو الحديث شطط فأسبابه ما أوضحنا من الأسباب الاجتماعية ، ومن شغف جديد بالبحث قد يخطيء وقد يصيب ، لا لأنهما يريدان معاونة الحاقدين على الدين في القيام بحركة التفاف . ولو أن كاتباً في أوروبا في بدء نهضة الإحياء في القرنين

الرابع عشر والخامس عشر اتهم رواد النهضة في أوروبا بأنهم يريدون القيام بحركة التفاف معاونة لمن يكره المسيحية من المسلمين لما تعدى قوله قول الأستاذ الغمراوي . ولا أظن أن الأدباء في أوروبا يسعون سعياً حثيثاً لمهاجمة الإسلام ؛ وإن كان بعض الكتاب الأوربيين يفعل ذلك فإنه لا يفعله كأديب ولا كمفكر عالم ولكن كمبشر بدين آخر . وإذا كان بين أدباء المسلمين ومفكرهم وبين الأدباء والمفكرين في أوروبا صلة فهي ليست صلة عداء لدين بل صلة بحث وتفكير قد يخطئ وقد يصيب . وبالرغم من أن الأستاذ الغمراوي قد فسر قوله (إرادة تغليب دين على دين) تفسيراً جديداً فإنه يحوم ويحلق دائماً في جو المعنى الذي فهمناه من قوله .

إن المؤرخين المعاصرين في أوروبا يميل الكثير منهم إلى الاعتقاد أن النزعة إلى التجديد في أوروبا في القرن السادس عشر كانت لا بد واقعة بمحاسنها ومفاسدها لأسباب أصيلة في دول أوروبا حتى ولو لم يكن للعرب أثر فيها . وربما يدعونا هذا الرأي إلى بحث رأي يقابله وإلى أن نتساءل إلى أي حد كان التغير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الحديث في مصر مؤدياً حتماً إلى النزعة إلى التجديد بمحاسنها ومفاسدها حتى ولو لم يكن للأدب الأوربي أثر فيها قل أو كثر . ولاني واثق أن الأستاذ لو بحث هذا الموضوع وجد في هذا الرأي من الحقائق ما يصح الاعتراف به حتى ولو لم يقره كله على علته .

* * *

ردّة على ردّة

بين القديم والجديد ^(١)

كنت أقرأ مختارات الشعر التي جمعها محمود باشا سامي البارودي الذي يعد زعيم المذهب القديم في الأدب في العصر الحديث ؛ فوجدت أنه قد اختار في باب النسب مجونا ليس بأقل من مجون الحسين بن الضحاك وأبي نواس الذي اختاره الدكتور طه بك في كتاب حديث الأربعاء بل بعضه أشد منه وبعضه مثله ، فاختار لأبي نواس قصيدة قالها يتغزل في شاب جميل كان كاتباً في ديوان الخراج بدليل قوله في القصيدة :

ومر يريد ديوان الـ خراج مضمخا عطرًا

وكانت عادة الشعراء في ذلك العهد التغزل في ملاح كُتّاب الدواوين . وفي هذه القصيدة يقسم أبو نواس أن مَرَقْشاً الشاعر العذري النزعة لو كان حياً لما أحب امرأة بل لأحب ذلك الكاتب المليح : وهذه هي القصيدة كما أوردها البارودي :

أما والله لا أشرا	حلفتُ به ولا بَطَرًا
لو آن مَرَقْشاً حَيٌّ	تعلق قلبه ذَكَرًا
كأن ثيابه أطلعـ	من أزواره قمرًا
بوجه سابرئى لو	نصوّب ماؤه قَطَرًا
وقد خَطَطْتُ حَواضِنُهُ	له من عنبر طُرّا ^(٢)
بعمى خالطَ التَّفْتِيرُ	في أجفانها حَوْرًا ^(٣)
يزيدك وجهه حسنا	إذا ما زدته نَظَرًا

واختار البارودي لأبي تمام قطعة قالها في غلام مملوك أهداه إليه الحسن بن وهب فقال :

(١) نشر بالمعبد (٢٩٦) من الرسالة في ٦ / ٣ / ١٩٣٩ م .

(٢) الحواضن أشبه (باللدادات) .

(٣) يعني بالتفتير نعمة العين .

قد جاءنا الرشا الذي أهديته خرقاً ولو شئتنا لقلنا (الركب)

والذي اختار هذا الشعر ليس الدكتور طه بك ولا هيكل باشا بل البارودي باشا . وقد أوردنا قبل الآن اختيار البكري أشياء من مجون ابن الرومي ونشر الشيخ شريف مجونه أيضاً . ولكن الأستاذ الغمراوي ترك البارودي وترك البكري والشيخ شريف واختص الدكتور طه وهيكل . فإذا كان ذلك لأن البارودي عارض قصيدة البردة فقد ألف الدكتور طه على هامش السيرة وألف هيكل حياة محمد وفي منزل الوحي ، ولا أظن أن أحدهما نشر شيئاً يقارب ما نشره البكري والشيخ شريف والبارودي .

والفكرة التي يتبينها القاريء من كلام الأستاذ الغمراوي غير صحيحة ، وهي أن المجون يعصم منه التدين فقد تمنعنا في بعض حفلات إحياء المولد النبوي الكريم من التغزل في الذات النبوية من الشعر ما ينبغي أن ينزه عنه ذلك الحفل من ذكر الرضاب والريق والوصال الخ الخ على طريقة بعض الصوفيين .

وسمعنا بعض الأفاضل يختلفون في أمور ثانوية تافهة من أمور الدين ، وكل منهم متدين ، فإذا انصرف أحدهم ذكره مناظره بكل سوء وبالمجون واتهمه بالزندقة . بل رأينا أن أعظم سلاح شيوعاً في الدفاع عن الدين والفضيلة أو عن عقيدة الوطنية أو عقيدة سياسية هو سلاح المجون في القول واتهمه ، وتعدى هذا السلاح هذه الأحوال إلى الدفاع عن النظريات العلمية والرأي يرى في البحث العلمي . والحقيقة أن المجون مزاج لا دخل له بالتدين أو عدم التدين ؛ وقد كان من أثر انتشار مزاج المجون أنك تقول قولاً سليماً تقصد به معنى نظيفاً فيكون أول ما تصنع عقول السامعين أن تفتش فيه عن تخريج إلى المجون ، ولا فرق في ذلك بين المتدينين وغير المتدينين ، ورأينا أناساً من المتدينين يدعوهم الحسد والحقد إلى اتهام كل من كان أغنى أو أعقل أو أنظف منهم بالمجون . ونعرف أن في علم النفس قاعدة تدل على أن بعض الناس حتى المتدينين منهم يتمنون لأنفسهم أماناً بالمجون فيتلذذون بأمانهم بنسبة ذلك المجون إلى غيرهم . وهناك طائفة من المتدينين صاروا ينافسون بعض رجال الصحافة والسياسة في سلاحهم السياسي ويحتجون باستعمال حسان بن ثابت هذا السلاح في الدفاع عن الدين ، وقد فاتهم أن المسلمين كانوا في عهد قوله هم المضطهدين المشتومين وقد نالهم من أقوال

خصومهم من السباب مثل ما نال المشركين من أقوال حسان بن ثابت . وفي يقيني أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما دعا له أن يؤيده روح القدس وعندما نصحه أن يلجأ إلى أبي بكر الصديق لم يكن يريد أن يزيد سيدنا أبو بكر من شدة المهجاء فقد كان الشاعر به أعرف ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم تخرج من الرمي بالباطل بالرغم من أن شعراء الكفار ما كانوا يتخرجون من ذلك . وقد ذهبت أقوالهم بعد ما انتصر الإسلام وبقيت أقوال حسان بن ثابت . ولو بقيت أقوال شعراء الكفار لدلت على ما أردنا إثباته وهو أن شعراء الكفار كانوا هم البادئين بتلك الطريقة في المهجاء . ومع ذلك فإن ديوان حسان بن ثابت خالق بأن يسمى ديوان العبر لأن سادة المشركين الذين هجأهم صاروا بعد إسلامهم سادة المسلمين ، وفي هجائه بعض ما لا ينقضه الإسلام ولا يفخره . وهذا الديوان إذا أخذ على علته دل على حالة خلقية لا يتوقع القارئ أن تكون في ذلك الزمن . والسير على هذه الطريقة من غير رقيب أو وازع هو من الإخلال بروح الدين في عصرنا وهو عصر ينقاد فيه السذج لمن يريد أن يشفي حقه أو حسده ممن لا دين له ولا خلق وإن تظاهر بالدين والخلق ، وهذه حقيقة لا مبالغة في تعبيرنا عنها وقد لا يكون الأستاذ الغمراوي ممن يعرفها لبعده عن هذه الطوائف وبعده عن أحقادها وأقذارها ولكنها حقيقة يستطيع أن يراها في المجادلات السياسية وخصوصيات بعض المشتغلين بالسياسة والصحافة والأدب ؛ فليس من العسير أن يفهم المفكر وجودها في بعض النفوس التي تتخذ السذج من المتدينين قنطرة للوصول إلى غرض شخصي ، أو في نفوس بعض الذين لا يفهمون أن الدين ينبغي أن يترفع أنصاره عن المجون ؛ لكن كيف تفهم ذلك نفوس مزاجها ذلك المجون . والمزاج لا يستطيع تجنبه مهما كان المرء متديناً . فالخطأ الذي وقع فيه الأستاذ الغمراوي عند ما حسب أن شدة التدين تعصم من الانهماك في الشهوات ، أو أنها تعصم من لذة قول المجون إنما هو خطأ الذي يحكم على غيره بحالة نفسه ؛ فإذا وجد نفسه متديناً يكره المجون ظن أن التدين يعصم من المجون . وليسمح لي الأستاذ الغمراوي أن أقول بكل رعاية : إن هذا الظن يدل على أنه لم يدرس خصائص النفس الإنسانية عامة في نفوس الناس دراسة غير التحيز وغير المتعصب لطائفة دون طائفة ، فإنه لو فعل ذلك لعلم أن مقدار ما في نفس المرء من مجون لا يعينه

مقدار تدينه ، حتى ولو وجدنا أمثال الأستاذ الذين يعصم تدينهم من المجون . ونحن لا نريد التعرض لشواهد من شعر ونثر الأدباء القرىبي العهد كرامة وصيانة ؛ وأما من عداهم من المتدينين وغير المتدينين فما على الأستاذ إلا أن يخالطهم وأن يدرسهم من غير أن يشعرهم أنه يدرسهم إلا إذا كانوا يهابونه كل الهيبة فلا يظهرهم أمامه حقيقة نفوسهم . والخطأ الثاني الذي وقع فيه الأستاذ هو ظنه أن الشكوك الدينية تمنع الاعتقاد . والخطأ الثالث حسبانه أن عجز الكاتب عن منع إذاعة هواجس نفسه يدل على أنها أكثر تمكناً من نفسه ؛ ومثل الأستاذ كمثله الذي يرى صنوبر ماء لا يقفل تماماً فيحسب أن ماءه أغزر من ماء غيره لأنه لا يستطيع إحكام حبس الماء من التسرب منه . وهذه الهفوات الفكرية هي التي وطدت السبيل لأن يفهم الأستاذ في النزعة إلى التجديد ما ليس فيها ، ففهم أنها حركة التفاف يراد بها التعاون مع الحاقدين على الدين الإسلامي من الأوربيين . وقد أوضحنا للأستاذ بالشواهد التاريخية والأدلة المنطقية أن كل ما في هذه النزعة من محاسن ومفاسد كان من الممكن استنباطه من الآداب والعلوم العربية حتى ولو لم تتأثر النفوس بأدب اللغات الأوربية ، وإنما كانت تحتاج إلى زمن أطول لاستخراج كل هذه الأمور لو لم تتأثر بأدب اللغات الأوربية . ولا أدري لماذا لم يتهم الأستاذ الغمراوي أبا العلاء المعري بأنه كان يريد أن يقوم بحركة التفاف وتطويق معاونة لأعداء الإسلام من الأوربيين .

ومن رأيي أن الأستاذ الغمراوي يؤدي خدمة كبيرة للدين والفضيلة لو أنه ترك نزعة التجديد وحاول بغيرته الصادقة أن يظهر الشعور الديني من شوائب الأثرة والمجون في نفوس الناس الذين يعتقدون أن تدينهم صك يعفهم من ضرورة تطهير أنفسهم من المجون ومن تهالك الأثرة وجشعها ووسائلها الخبيثة وأحقادها . وإذا كان شيخ الأدب القديم محمود باشا سامي البارودي لم يعصمه أخذه بالمذهب القديم من اختيار شعر أبي تمام في الغلام . فإن من الظلم يا أستاذ أن تلوم الدكتور طه وهيكمل بعد ذلك على نشر قصص منقولة عن الفرنسية ، وهي مهما كانت لا يبلغ بها المجون هذا المبلغ ، وبعضها كان دراسات نفسية (سيكولوجية) ، وإذا كان شيخ المعرة أبو العلاء المعري لم يرد أن يقوم (بحركة التفاف) لمعاونة

أعداء الإسلام من الأوربيين عندما قال : (قالوا لنا خالق حكيم) إلى أن قال :

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

وعندما قال : (الموت نوم طويل لا انتهاء له) ، وانظر إلى قوله لا انتهاء له ،
وعندما قال في إنكار البعث :

لو كان جسمك متروكاً بهيئته بعد التلاف طمعنا في تلافيه

ومثل قوله في فناء الروح :

وجسمى شمعة والروح نار إذا حان الردى مخدت بأف

أقول بعد هذه الأقوال وأشباهها التي يتخللها أقوال أخرى تختلف عنها :
إذا كان شيخ المعرة جديراً بإحياء المسلمين ذكره ، وطبع أقواله فمن الظلم أن
يعد الأستاذ الغمراوي دراسة فولتير جريرة وحركة التفاف .

إن للدكتور طه آراء نخالفها كل المخالفة ، ولكنها ليست حركة التفاف ؛
إنما هي نتيجة التفكير الذي قد يخطئ وقد يصيب . وكذلك ليست القصص
التي نقلتها السياسة الأسبوعية حركة التفاف وإنما يصح أن ينتقد الناقد نشر بعضها ،
وما دامت مكثبات مدارس البنين والبنات الدينية وغير الدينية مملوءة بمثل المجون
وأشد من الفحش والمجون الذي سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(١) سحيم
عبد بني الحسحاس ينشده في بنت سيده ويقول :

ولقد تحدر من كريمة بعضهم عرق على جنب الفراش وطيب

فمن العبث لوم السياسة الأسبوعية على تلك القصص .

★ ★ ★

(١) راجع كتاب طبقات الشعراء لابن قتيبة .